كتاب الله العظيم

القرآن الكريم

دكتور
محمد عبد المنعم خفاجى

الطبعة الأولى
٢٠٠٦

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس ٥٢٧٤٤٣٨/ الإسكندرية

القرآن العظيم

الناشـــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com



http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : كتاب الله العظيم القرآن الكريم

المؤلـــــف : د. محمد عبد المنعم خفاجى

رقم الإيداع : ١٦٤١٨ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى: 6 - 573 - 327 - 977

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

القرآن الكريم كتاب الله العظيم ورسالة نبيه ورسوله محمد صلوات الله عليه إلى البشرية كافة، أوحى الله عز وجل به إليه ناموسا خالدا لرسالة الإسلام الخالدة الباقية على مر الأجيال والعصور، الصالحة لكل زمان ومكان.

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول النبى الخاتم التى تحدى بها الناس جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها منذ بعثته ﷺ ولا يزال كتاب الله إلى اليوم وحتى تقوم الساعة حجة باهرة، وبرهانا ساطعا، ودليلا واضحا على صدق رسالته التى أوحى الله عز وجل بها إليه، وبلغها للناس كافة، وكان صلوات الله عليه البشير النذير لبنى الإنسان جميعا ليستقيموا على الجادة، وليسيروا فى طريق التوحيد والإيمان والطهر والخير والحق والعدل والسلام، وليعملوا بشريعة الله الخاتمة، وليسيروا فى الحياة فى طريق النور والصلاح والبر والمعروف والخير والبناء والتكافل.

إن القرآن الكريم بمبادئه السمحة وشريعته الإنسانية الرفيعة، وبإعجازه الروحى والعلمى والتشريعى والبلاغى والأدبى والاقتصادى، لا يزال حجة على الإنسانية، ودعوة صريحة إلى التوحيد والإيمان، ورسالة للحق والعدل والخير والإحسان.

إنه القرآن الكريم، الذى وقفت الأجيال أمامه مذهولة مشدوهة، تتأمل حكمه وفروضه وآدابه، تأمل الباحث عن الحقيقة، والساعى إلى المعرفة، والسائر فى طريق الإيمان.

إنه كتاب الله، يحمل دعوة دين الإسلام إلى كل العصور وإلى كل الأجيال، لتؤمن بالإله الواحد الخالق المعبود والقادر المهيمن الموجود السلام العزيز الحكيم المدبر .

فإلى القرآن الكريم، إلى دعوته النبيلة، إلى شريعته الخالدة، من أجل سعادة الإنسان والإنسانية، ومن أجل بقاء الحياة والخير والسلام والحضارة على الأرض، ومن أجل كسب مرضاه الله وملائكته ورسالة والسلام على من اتبع الهدى.



بين يدى كتاب الله العظيم

كتاب الإنسانية

نعم كتاب الإنسانية كلها، وكتاب البشرية كافة وكتاب الدين والدنيا وكتاب العلم والمعرفة،وكتاب الإيمان والتوحيد، وكتاب الروح والفكر...

إنه القرآن الكريم، كتاب الله الخالد المبين.. ولابد أن نذكر القرآن الكريم ألف مرة ومرة،ونحن فى شهر نزول القرآن، شهر رمضان المبارك الميمون.

ومن عجب أننا حين نقرأ القرآن الكريم، نذهل حق الذهول للشخصية المهيمنة المسيطرة على ذهن القارئ والسامع والتى تبلغ من العظمة مالا يدركه عقل،ومن الجلال مالا يحيط به وصف،ومن العزة مالا يتصوره فكر....

تقرأ فتجدك مع السماء تارة، ومع الأرض بجبالها و أنهارها وسهولها وأشجارها وأزهارها وورودها ورياحينها تارة أخرى، وتجدك مع الكون الفسيح، ومع القدرة الشاملة،ومع الإرادة النافذة، ومع الملك والملكوت،والعزة والرحمة والجبروت،ومع خلق الإنسان،ومع الحياة والموت، والبعث والحساب و النشور،ومع العذاب والنار، ومع الجنة والجحيم، ومع أدنى مسائل الحياة، ومع كل أمير الموت،ومع النجوم فى أبراجها، والسفن الباحرة فى تسخير الله لها للإنسان.

ونجد القرآن يقص قصص الأولين، ويحكى حوار الآخرين، فى يوم القيامة،يوم الدين،ويذكر جهاد الأنبياء من أجل رسالة السماء وتبليغها للبشر، والأمم القديمة البائدة التى لم تدون أخبارها كتب التاريخ،ولا أسفار العلم.

من ذا الذى يمكن أن يحيط بذلك كله من الناس؟ ومن الذى يتحدث فى ثقة وصدق عن يوسف فى السجن، وعن ذى النون فى الحوت، وعن إبراهيم فى دعوته للتوحيد، وعن نوح فى حديثه مع قومه،وعن حوار إبليس وكفره؟...... لا أحد يمكن أن يقول ذلك كله.. ولا أحد يحيط بذلك كله..

إنه الله وحده، لا شريك له، خالق الوجود والإله الحق المعبود،عرش، بلقين، جوار اليتيميين والخضر وموسى يقيمان من أوده، موسى فى رحلته إلى مدين، عيسى وهو يتكلم فى المهد، عاد وثمود وقوم ولوط، شعيب وهو يشترط على موسى فى مهر ابنته.... الخ كل ذلك من الذى نبأ به، إنه العليم الخبير. إنه

الحكيم القادر العظيم، إنه الذى يعلم السر وأخفى، ما يكون من نجوى ثلاثة ألا هو رابعهم ،ولا خمسة إلا هو سادسهم...

القرآن الكريم وما أدراك ما القرآن الكريم؟

من ذا الذى يكون عنده أدنى عقل ثم يستطيع أن يقول: إنه كتاب محمد أو من إبداعه وبلاغته.

هل يستطيع محمد أن يكون فى مثل هذا العلم الزاخر،وفى مثل هذا الشمول الباهر، وفى تلك الإحاطة الواسعة، وفى مثل هذا الفكر المتألق العجيب؟

هل يستطيع بشر أن يحيط بأحاديث القرون،و أنباء العصور، وقصص الأمم، وجهاد الرسل فى تبليغ رسالة السماء إلى الناس؟

هل يستطيع إنسان أن يتحدث عن خلق الحياة والكون والسماء والأرض، والإنسان والوجود بمثل هذه الثقة واليقين والإدراك؟

كلا.... ثم كلا

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد

إنه نبض الحياة، إنه إبداع الفكر، إنه الكون كله، إنه الدنيا والآخرة،أنه النور وما وراء النور.

يا حياة البشر، يا نهج الهدى، يا شريعة الكون.. يا نداء السماء..

إنه القرآن الكريم، وهو كتاب محمد عليه أجل الصلاة وأفضل السلام...

إنه المنهج السوى والشريعة القويمة، والبينة الواضح أداؤها.. إنه معجزة السماء، ومعجزة الوجود...

إن القرآن الكريم يذهل كل قارئ له من أى لون أو جنس أو دين أو فكرة بعظمة روحه، وجلال فكره،وسعة مشاهده، وطول مساحات تناوله. إذ يتناول الدنيا والآخرة، والسماء والأرض، والكون كله،ويتناول الإنسان والإنسانية. ويتناول المرأة والرجل والطفل والشيخ الهرم،ويتناول الأخلاق والسلوك والتشريع. ويتناول العبادة والتوحيد والدين.ويتناول كل مغاليق الحياة، وأسرار الطبيعة ومفاتيح الكون. ويتناول الإنس والجن،والنار والجنة والنشور والحساب ويتناول الروح والملائكة

والأنبياء والرسل،ويتناول الشعوب والأمم، وموقفها من الرسالات السماوية المنزلة،ويتناول أحداث التاريخ الكبرى: خلق آدم، طوفان نوح، تدمير بعض الحضارات القديمة، انشقاق البحر لموسى، معجزات عيسى، معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الكبرى.

القرآن ليس كتابا يكتبه إنسان، إنما هو كتاب الله عز وجل المنزل من السماء، نزل به الوحى الأمين، على رسوله الكريم، محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله و أصحابه أجمعين.

كتاب لا يمكن لبشر أن يأتى بفكرة واحدة كفكر القرآن ، أو بموضوع واحد كموضوعاته، أو يكتشف سرا واحدا من أسرار الكون والطبيعة كما صنع القرآن الكريم.

كتاب أنزله الله مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

كتاب يصيبنا بالروعة والإعجاب والذهول حين نقرؤه.. ولو أن هذا القرآن أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

اقرأ قصة يوسف عليه السلام أو قصة موسى،وقصة إبراهيم ، أو نوح، أو آدم،وسل نفسك : من الذى وعى هذه الأحداث وسجلها؟ من الذى شاهد هذا التاريخ القديم وكتب عنه.

اقرأ مصارع عاد وثمود، وفرعون وجنده، وقارون وكنوزه...

واقرأ قصة خلق آدم، والحوار بين الله عز وجل وملائكته،والحوار بينه وبين حواء... من الذى يمكن أن يكون قد شاهد هذا كله وكتب عنه...

آيه عظمة هذه العظمة وأى جلال هذا الجلال وأى معجزة هذه المعجزة...

كل ذلك لا يترك فى نفسك أى شك فى أن القرآن كتاب الله الخالد ومعجزة محمد الباقية الدائمة، وأنه كتاب الرسالة المنزلة من رب العرش العظيم على محمد بن عبد الله،وأنه كتاب للإنسانية كلها،وكتاب للبشرية جمعاء، وأنه ليس فى مقدور أحد أن يتطاول إلى ذروته أو يحاول الوصول إلى قمته،وأنه كلام رب العالمين وأنه جاء هدى ونورا للإنسانية كافة.

فسلام عليه، وتحية إليه، وخشوع وخضوع لعظمته وجلاله.

إن الإنسانية كلها لحرى بها أن ترفع رأسها إلى السماء وهى تذكر هذا الكتاب المحكم المبين.. كتاب الله العلى العظيم، الكتاب المنزل من السماء على سيد الخلق أجمعين صلاة الله وسلامه عليه دائما وأبدا إلى يوم الدين

الشهر: **رمضان...**

والمكان: غار حراء على مسافة ثلاثة أميال من مكة ومحمد بن عبد الله يصعد إلى الغار ليتعبد فيه لله عز وجل، ويستقر به المكان أنسا وفرحا وبشرا.

وينام رسول الله ﷺ فى الغار ثم يستيقظ ، لقد سمع صوتا كأنما يأتى من بعيد، يقول له أقرأ.. فيرد عليه محمد بن عبد الله: ما أنا بقارئ..وشعر رسول الله بملك من السماء يحوطه بذراعيه، ويضغطه ضغطا شديدا، ويقول له: اقرأ... ويرد محمد بن عبد الله: ما أنا بقارئ.

ويعود صاحب الصوت إلى ضغطه الشديد،ويقول لمحمد: اقرأ ، ويرد محمد بن عبد الله: ما أنا بقارئ، فيقول له الملك: "اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم"فرددها محمد بن عبد الله، وهب من ضجعته ينظر حوله فلا يرى شيئا،روى عنه ﷺ أنه قال:" فانصرف عنى،وهببت من نومى، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر،وجعلت أصرف وجهى عنه فى أفق السماء فلا أنظر فى ناحية منها، إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى"

واستيقظت خديجة من نومها فى منزلها بمكة فلم تر محمدا فى جوارها ولا فى البيت فبعثت رسلها فى طلب محمد بن عبد الله،فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها ومحمد واقف فى مكانه ذلك، حتى انصرف صاحب النداء العظيم عنه وانصرف محمد راجعا إلى أهله.

عاد محمد راجعا إلى بيته، وألقى بنفسه فـي ذراعـى زوجـه خديجـة، وهـو يردد: زملوني.... زملوني.... وبعد وقت طال أو قصر، تسـأله خديجـة: يـا أبـا القاسم: أين كنت فو الله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا أعلى مكة، فحدثـها رسول الله ﷺ بما رأى وما سمع، فقالت له: أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذى نفس خديجه بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

"إنها ليلة رمضانية مباركة نزل فيها الوحى من السماء على محمد بن عبد الله، سيد النبيين، وخاتم المرسلين ﷺ.

ليلة مـلأ نورهـا الدنيـا، وهـز نبؤهـا العـالم، وسـعدت بـها الأمـم والشـعوب والإنسانية قاطبة.

- ٢ -

وعن هذه الليلة المباركة نزل قوله تعالى: " **إنا أنزلناه فى ليلة القـدر ومـا أدراك ما ليلة القدر؟ ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكـة والـروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر**".

المراد بنزول آيات من القرآن على رسول الله فى هـذه الليلـة المباركـة وقيـل المراد: نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

ويقول الله عز وجل: " شهر رمضـان الـذى أنـزل فيـه القـرآن هـدى للنـاس ،وبينات من الهدى والفرقان".

وكان رسول الله ﷺ يحتفـل فـى العشـر الأواخـر مـن رمضـان بـهذه الليلـة المباركة أيما احتفال، ولا يعرف على وجه التحديد أية ليلة هى، والمشهور أنـها ليلـة السابع والعشرين من رمضان المبارك وأن إحياءها سنة لقول أم المؤمنين عائشـة رضـى الله عنها: " كان رسول الله ﷺ يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ويقول: " تحـروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان" رواه البخاري

وكان عليه السلام إذا دخل العشر الأواخر من رمضـان أحيـا الليـل بـالتلاوة والذكر وأيقظ أهله، واجتهد فى العبادة.

وقال ﷺ من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه".

ورد حديث بدء نزول الوحى فى صدر صحيح البخارى ويسترسل الحديث الشريف، فيذكر أن خديجه رضى الله عنها انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو من أقربائها ، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما رآه محمد ﷺ وما سمعه،ولما فرغت من حديثها صاح بأعلى صوته: قدوس قدوس،والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجه لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولى له: فليثبت. وأخبرت خديجة رسول الله بما سمعت من ورقة بن نوفل،ولم يلبث رسول الله أن خرج من البيت يطوف بالكعبة حمدا وشكرا لله رب العالمين على النعمة العظمى التى أمتن الله عز وجل بها عليه، نعمة الرسالة العظمى، خاتمة الرسالات الإلهية إلى البشر أجمعين.

كان رسول الله ﷺ حين نزل عليه القرآن فى الأربعين من عمره المبارك على أرجح الأقوال، كما رواه ابن عباس وأنس فى الصحيحين، ولكن الواقدى قال: وهو فى الثالثة والأربعين، وعن مكحول أن القرآن نزل والرسول فى الثانية والأربعين.

وكان أول نزول الوحى فى يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان،وقيل : لأربع وعشرين وعند المسعودى وابن عبد البر: بعث رسول الله يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة أحدى وأربعين من عام الفيل،والاتفاق على أن البعثة كانت فى يوم الاثنين وأن الشهر كان شهر رمضان، وروى مسلم عن أبى قتاده أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال:" ذاك يوم ولدت فيه وفيه أنزل على".

وقال تعالى:" حم،والكتاب المبين، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم، أمرا من عندنا، إنا كنا مرسلين".

وقال تعالى:" إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شىء قدير"،وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر. وكان لقاء بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان.

أى شرف للإنسانية عامة أن خصها الله عز وجل برسـالة محمـد ﷺ خـاتم النبيين وسيد المرسـلين؟ وأى مجـد للدنيـا كافـة أن أنـزل الله عـز وجـل لهـا كتابـة الحكيم، الذكر الكريم، والقرآن العظيم على رسوله الأمين محمد بن عبد الله ﷺ .

القرآن صوت السماء، وهتـاف الهـدى والنـور،ونـداء المـلأ الأعلـى للعـالمين؛ " أن آمنوا بى وبرسولى تكونوا من الفائزين".

الله لولاك ما اهتدينا

وما صمنا ولا صلينا

أنت أرحم الراحمين،وأنت الكريم الذى تحمد نعماه إلى يوم الدين.

الإسلام العظيم، ديننا الخالد، دين الإنسانية كلها، دين الخير والرحمة والأمانة والوفاء، عقيدة يؤمن المسلم، وشريعة عمل يلتزم بها فى سلوكه وحياته وفى كل لحظة من لحظات عمره......

إنه عقيدة وعمل وفق الشريعة......

إنه إيمان وسلوك على طريق الإيمان.......

إنه أيديولوجية كاملة بانية متسامية..... لا يفصل فيها العمل عن العقيدة ولا العقيدة عن العمل،

إنه السمو بالإنسان روحا وبدنانا، قلبا وجارحة، نفسا وسلوكا..... إنه طهارة الروح وطهارة الجسم، وطهارة الخلق، وطهارة العرض، وطهارة الشرف.

والإسلام ليس قولا فحسب، بل قول وفعل، وليس عناية فحسب، بل غاية وعمل وسلوك من أجل الوصول إلى الغاية.....

الغاية هى رضاء الله، وهى خلافة الله فى الأرض، وهى إدراك أعلى الدرجات عند الله فى الدنيا والآخرة.....

والعمل هو كل ما يوصل الإنسان لبلوغ هذه الغاية من عمل وسلوك وآداب وأخلاق وفضائل، وقول ونية وعزيمة صادقة خاصة لله رب العالمين.

الإسلام فى عقيدته توحيد خالص، لا شرك فيه، إيمان كامل لا تشوبه شائبة من رياء أو زيف وهو فى شريعته عبادات وطاعات ورسوم وفرائض وحدود وسلوك وأخلاق و آداب ومثل عالية شريفة، يعمل بها ولها المسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.......

المسلم هو مثل عال للأمانة والرحمة والخير والحق والعدل والإحسان والصدق والوفاء، وأداء الحقوق، والالتزام بالمسئولية هو الضوء الباهر فى ظلمات الحياة، هو العزم المتجدد إذا ما وهنت عزائم الرجال وانطفأ مصباح الأمل.

المسلم صادق أمين،وفى أبى، شريف عفيف،كريم رحيم، قوى فى الحق، إنسان فى نوائب المعروف... وقد وصف الله عز وجل رسوله الكريم والمؤمنين من أصحابه فقال عز وجل:

"محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار،رحماء بينهم،
تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا،
سيماهم فى وجوههم من أثر السجود"

عزة النفس والقوة فى الحق،والرحمة الخيرة والإخلاص لله وطلب عونه ومرضاته، والعبادة التامة الكاملة لله رب العالمين.. صفات ما أجملها وأكرمها فى حلقة العقيدة والشريعة...

ونحن المسلمين، وفينا القرآن الكريم، وتعاليم سيد المرسلين هل ينقصنا منهج كامل للعمل والحياة؟ هل تنقصنا تعاليم ترشدنا إلى خير الدنيا والآخرة؟ هل ينقصنا نور يضىء لنا الطريق؟

كلا....كلا....

إن معنا هدى القرآن الكريم، ومعنا كل تعاليم وحى السماء، ومعنا الحق المبين والخير العميم، ومعنا ما يبلغنا شرف الدنيا والآخرة،ومعنا دعوة التوحيد ورسالة الإيمان، وعقيدة الطهر، وشريعة العمل...

معنا.... معنا....

فحى على العمل....... حى على الفلاح.

القرآن رسالة الله إلى العالمين

إن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به. ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والبلاغة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم المأثورة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر.

وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف.وقد جاء القرآن الكريم، على كثرته وطوله، متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله"... " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا".

وبعد فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاص على الأسماع، ولا ملتو على الأفهام، ولا مستكره فى اللفظ، يمر كما يمر السهم، يضىء كما يضىء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح فى البدن،والنور المسيطر فى الأفق.

والغيث الشامل، والضياء الباهر" لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من حكيم حميد".

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر تحبها وتعشقها وتجيدها وترفع من منزلة الشاعر المحلق، والخطيب البليغ، تنوء بهما،وكانت أكثر ما يكون خطيبا وشاعرا وأديبا، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر. أو ظهر فيها فصيح،استبشرت وافتخرت وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشىء العظيم،وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستمرة، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون ومن ثم رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد يصغون لقولهم ويسيرون وفق رأيهم ويمضون ما يحكمون به بينهم. يضعون الشريف الغاية، ويرفعون الخامل الوضيع فكان أمرؤ القيس لشعره الساحر زعيما، وكان النابغة سفيرا للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة، وحكما بين الشعراء فى سوق عكاظ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب. ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان، ويسافر إلى الحبشة وكان قس بن ساعدة الإيادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين.... إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء، والشعر والشعراء... وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بعث محمد الرسول الأعظم ﷺ برسالته إلى الناس كافة نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونورا وبشرى، فيه دعوة إلى التوحيد، و الطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر، من شئون الحياة، وأخبار الأمم، وقصص دعاة التوحيد: من المرسلين والأنبياء، وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم، من تشريع، وعبادة، وأخلاق وفضائل، و آداب، وتوجيه كامل إلى المثل العليا.

نزل هذا الكتاب الكريم، والنور الخالد، والوحى الصادق والدستور العظيم، فكان فى أعلى درجات البلاغة ومنازل الفصاحة، لا يدانيه بيان، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شعر، وخطب، ومحاورات، ومفاخرات ومنافرات، ووصايا، ومثل، وحكمة وكهانة.

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، فخروا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته ومقرين بأنه نسيج وحده، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان.

بهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم كما يضيع السراب فى الصحراء، وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت

ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول.. وذهبت كل بلاغة فى تياره، وضلت الفطر الأدبية العالية، وفرت أمام أضواء نهاره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين، والإيمان برسالة سيد المرسلين فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، يؤلبون الشرك على دعوة الإسلام ... فقالوا فى القرآن الكريم: هو شعر، هو سحر، وهى أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا،وإن هذا إلا اختلاق. ورموا محمد ﷺ بالجنون.

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد ﷺ بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم ،والكتاب العربى . قال الله تعالى: " وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا.ولن تفعلوا، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين"

وقال تعالى:" أم يقولون افتراه، قل ، فأتوا بعشر سور مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله،وأن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون"؟

وقال تعالى:" أم يقولون، تقوله،بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله، إن كانوا صادقين"،وقال تعالى:" قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" فسجل عجز البشر كافة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن– ولو تظاهروا– الوقوف أمام هذا التحدى ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة، التى هى فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته.. ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعرا وساحرا، ومن الافتراء والجنة،ومن الكذب والخيال قال تعالى:"والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى"

وقال تعالى:" وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين، ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين،ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين،وإنه لتذكره

للمتقين، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين، وإنه لحسرة على الكافرين، وإنه لحق اليقين".

وهكذا رد الله عز وجل عليهم وبين كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبين أنه منزل من السماء، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة وتحداهم- أن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين- إلى الإتيان بمثله أو بعشر سور مفتريات من مثله أو بسورة واحدة فعجزوا أمام التحدى، وباءوا بالخزى والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

ثم امتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان.

واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل، فى ذلك فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين. وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين.. وأراد مسيلمة الكذاب فيما يروى أن يقول كلاما، فخزى وعجز، وبان عليه العمى والحصر، وباء بالخسران، وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: والليل الدامس، والذئب الهامس، وما قطعت أسيد من رطب ولا يابس... وقوله: المبديات زرعا، والحاصدات حصدا والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إحاله وسمنا، لقد فضلتم أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر.. وغير ذلك من كلامه من ذلك النظم القرآنى العجيب، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم يؤمنون إيمانا صادقا، بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه. وأن ذلك كله شيء انفرد به وحده. وأنه كلام الله وكتابه، وأن نبوة محمد ﷺ إنما بنيت على هذه المعجزات، وذلك الكتاب الحكيم المبين، الذى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا

بمثله . . . وستمضى وتتوالى الأجيال وهو يضيء كما يضيء الفجر، ويزخـر كمـا يزخـر البحر، ويفتن الألباب والعقول ببلاغته وجلاله وعظمته وحكمته وروعتــه، وصـدق الله العظيم" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني، تقشعر منه جلـــود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكـــر الله، ذلــك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد".

القرآن رسالة ووحى من السماء

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ (من آيه ١٩ آل عمران)

إنه دين الأنبياء جميعا.

جاء به إبراهيم الخليل، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ (١٣٨ البقرة) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢ من سورة البقرة).

ومن قبل جاء به نوح: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢ يونس)

وجاء به يعقوب، "إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣ البقرة).

وجاء به لوط: فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦ الزاريات).

وجاء به يوسف: أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١ يوسف).

وجاء به موسى: "وَقَالَ مُوسَى لقومه يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤ يونس).

ويقول تعالى، وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠ يونس).

وأمنت بالإسلام السحرة الذين أمنوا بموسى:

وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا .رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ(١٢٦ الأعراف).

وهو دين أنبياء بنى إسرائيل، انا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ (٤٤ المائدة).

وهو دين سليمان،الا تعلوا على واتونى مسلمين (٣١ النحل).

وآمنت به بلقيس ملكة سبأ – وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٤٤ النحل).

وآمن به المسيح عيسى وحوارييه، "قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون(٥٢ آل عمران).

وقال تعالى، وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون(١١١ المائدة).

وهو دين المهتدين من الجن، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا (١٤ الجن).

الإسلام دين محمد رسول الله إلى الناس جميعا، وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٧١ الأنعام).

وكما أن الإسلام دين رسل الله وأنبيائه والمهتدين بهدى الله، هو كذلك دين الإنسانية عامة وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين* قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون (١٠٧-١٠٨ الأنبياء).

وقال تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا(١ الفرقان)

وصدق الله العظيم.

القرآن المعجزة الدائمة

- ١ -

نزلت الرسالة على محمد بن عبد الله،وبلغها للناس، وأعلنها للجماهير فى عزم وقوة وأمانة تبليغ.

وكفرت قريش، وكفر العرب برسالة السماء..

وقالوا عن رسول الله صلوات الله عليه أنه شاعر.. وأنه مجنون... وأنه ساحر.. وأنه طموح يبغى الملك،وأنه صاحب هدف يبغى المتعة... وغير ذلك من أكاذيب قالوها ولفقوها وجهروا بها بين الناس...

وعللت قريش كفرها بأنها لو آمنت برسالة محمد لتخطفها الناس من حولهم! وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا!!

" أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون" (٥٧ القصص).

وهكذا رد الله عز وجل عليهم افتراءهم فى قوة وعزم.

كيف يتخطفهم الناس من حولهم، وقد هيأ الله لهم الحرم من حولهم، وهو حرام آمن تجبى إليه الثمرات من كل حدب،ويقصده الناس من كل مكان؟....

ألم نجعلهم سادة العرب، وزعماء على كل القبائل والعشائر؟

وفى أية أخرى يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم، أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٦٧ العنكبوت).

ومن أجل هذا الكفر والعناد واللجاج تحدى الله عز وجل العرب بالقرآن الكريم بهذه المعجزة الإلهية الخالدة،وبذلك الكتاب الحكيم المبين، تحداهم أول الأمر أن يأتوا بمثله، فقال تعالى:

"فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين"

وقال عز وجل:

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨ الإسراء).

عجز المشركون إذن عن أن يأتوا بمثل كتاب الله المنزل من السماء، وهم أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر، وكانوا أكثر ما يكونون خطيبا وشاعرا.

فتحداهم عز وجل بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور من أمثال سور القرآن الكريم... فقال تعالى فى كتابه الكريم: أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون؟...

وعجزت العرب وعجزت قريش وهم أفصح العرب لسانا، وأبلغهم بيانا... فعاد محمد صلوات الله عليه يتحداهم بسورة من سور القرآن الكريم، وسورة واحدة يأتون بها، تضارع فى نظمها وبلاغتها وجودتها سورة من سور كتاب الله...

"أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله"

وقال عز وجل أيضا:

" وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله..."

وقال عز وجل:

" وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله..."

وكان العجز أمام التحدى، وكان السكوت المطبق أمام هذا القيال ، وأخذوا يهزون ويقولون مالا يعرفون، ويهرفون بما لا يدركون... قالوا : ساحر، وقالوا: كاهن، وقالوا: شاعر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كذاب أشر.... إلى غير ذلك الهراء والافتراء.

- ٢ -

إن عظمة القرآن الكريم إنه كتاب يحيط بجوانب الأولى والآخرة، ويعرض عليك الكون كله ويقص عليك قصة الحياة ذاتها، ويخبرك بأخبار الأولين

والآخرين، ويوقفك على نشأه الحياة على الأرض، وينبئك بأنباء الأمم والشعوب والرسل والأنبياء، وبجهاد رسل الله من أجل الدعوة إلى الإيمان بإله واحد لا إله غيره ولا معبود سواه، ولا خالق إلا هو ولا مدبر للكون والحياة والوجود غيره الإله العظيم الحكيم.

وعظمة القرآن أنه يريك الجنة والنار، ويريك ساكنى الجنة والجحيم ويسمعك حوار أهل الجنة و أهل النار، وإنه يسمعك الحكمة الباهرة، والمثل السائر، و القولة البليغة، والكلمة النيرة... ويعرض عليك جوهر رسالات السماء، ويدعوك إلى الإيمان المطلق، وإلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وعظمة القرآن أنه يقدم لك دستورا خالدا أساسه الحق والعلم والمعرفة والتوحيد والإيمان، ودعامته الحرية والإخاء والمساواة، وأساسه العدل والإحسان والتكافل الاجتماعى، وأنه يقدم لك تشريعات إلهية حكيمة للفرد والأسرة والمجتمع و الأمة والشعوب، وأنه يدعو إلى فضائل الإنسانية، ويحذرك من الشرور والمفاسد والفحشاء، وأنه يبصرك الطريق، ويوضح لك الغاية، ويضعك أمام مسئوليتك، ويتركك للعقل وللتفكير، وللتأمل، وأنه يقول لك أسرار كل شيء فى الوجود فى إيجاز بليغ، وأسلوب فصيح.

– ٣ –

وعظمة القرآن فى أنه معجز للأولين وللآخرين، فى يمكن لبشر أن يكتب كتابا أو يؤلف قصيدة يقول لنا فيها شيئا ولو صغيرا عن أسرار الكون والحياة والإنسانية، أو يكشف لنا عن أسرار النشأة الأولى وأطورها أو يحدثنا عن أخبار البشرية وتاريخها الطويل، ولا يمكن لبشر أن يصوغ أى حدث من الأحداث التى ذكرها القرآن الكريم بمثل هذه البلاغة وهذا الإيجاز .

وهذا الحوار الرائع العظيم الذى سجله القرآن الكريم بين الملائكة أو بين أهل الجنة وأهل النار، أو بين الرسل و أممهم، أو بين أهل الأديان والمذاهب المختلفة، لا يستطيع بشر أن يجارى فيه القرآن الكريم، أو يسير شوطا فى طريقه الطويل.

حدث عن القرآن ولا حرج، حدث عن معجزة الإنسانية كلها ولا خبير حدث عن جلال الروح، وسمو الغاية ، ونبل الهدف،وعظمة الفكر، ولا تخشى لائمة لائم.

حدث عن مواقف مشركي مكة حين سمعوا القرآن الكريم، فأصيبوا بالذهول،وملكتهم الدهشة،وباءوا بالخسران،وأين هم من هذا الكلام العظيم،والفكر الكبير، والمضامين الرفيعة، والمعانى الجديدة،والأغراض الشريفة، والصور البليغة، بل أين جبابرة العقول وجهابذة الفكر وأعلام البيان من كل عصر وجيل، من كلام رب العالمين وأحكم الحاكمين، وخالق الكون والناس أجمعين؟

أن القرآن الكريم تحدى الدنيا كلها والإنسانية جمعاء، ولا يزال يتحدى ، إيذانا بأنه كلام رب العالمين، ويصدق رسالة محمد الهاشمى القرشى الأمين، وبأن بشرا لا يمكن أن يعارض كتاب الله، ولو حاول المستحيل، فليس أية مقدرة على ذلك لا فى الكثير أو القليل.

وقفت مذهولا أمام قصة صغيرة نشرتها جريدة الأهرام منذ سنوات وخلاصتها أن سويسريا اعتاد السرقة، فاستجمع شجاعته يوما وذهب المحكمة، وقابل القاضي وبادره بقوله: أرجو يا سيدى القاضى أن تأمر بقطع أيدى ، لأنى لا أستطيع الامتناع عن السرقة..

هذا الإنسان الغربى، يفهم أن الاعتياد على الجريمة يجعل من العسير على الرجل الكف عنها،وإن أجدى الوسائل لمنع من تعود على السرقة أن تقطع يده، وذلك برهان صادق جاء على لسان غربى مسيحى دليلا على عظمة حكمة الله عز وجل، وجلال شريعته الشريعة الإسلامية فى قطع يد السارق، إذا ما توفرت لجريمة السرقة أركانها المعروفة فى الإسلام..... وأنه لا علاج لهذه الجريمة المنكرة إلا قطع يد السارق.... وذلك منطلق الفطرة الإنسانية،والإسلام هو" دين الفطرة" والله عز وجل يقول فى كتابه الحكيم:

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون"(الروم ٣٠).

وإذا نظرنا إلى شريعة الإسلام وتشريعاته وجدناها كلها تسير وفق منطق الفطرة الإنسانية النقية الخالصة: فالزواج مثلا عقد مقدس يتم بإيجاب وقبول ،وليس إلزاما ولا فرض إرادة، ولا هيمنة وسيطرة خارج إرادة الزوجين.. ليس كهنوتا، بل محبة ورحمة وتعاون،وإيجاب وقبول برضاء الطرفين.

الخمر حرام لأنها ضد الفطرة الإنسانية، واللبن- مثلا- حلال لأنه غذاء الأبدان.

الصلاة، الصيام،الحج،الزكاة، الصدقة، الإحسان، العبادة، الطاعة، الفضائل: الجميع منهج سماوى، لأنها منهج الفطرة الإنسانية الخالصة،والإسلام هو دين الفطرة، وهو" صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة"....

الدستور الإسلامى فى المعاملة هو الذى وضحه رسول الله ﷺ: "عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

لنفسه".. كما يحب الإنسان لنفسه، كذلك يجب أن يحب لكل الناس، وكما يحب الإنسان أن يعامله الناس بالأمانة والوفاء بالعهد، كذلك عليه أن يعامل الناس بذلك... وفي المأثور أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يبيح له الزنا- فقال صلوات الله عليه: أتحبه لابنتك؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لأختك؟ أتحبه لخالتك؟ فالرجل يقول للرسول الأكرم: لا، ورسول الله صلوات الله عليه يقول له: فكذلك لا الناس لا يحبونه لبناتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لعماتهم، ولا لخالاتهم.

منهج واضح، هو منهج السماء حقا ،وهو منهج الفطرة الإنسانية صدقا، هو منهج الحياة والحضارة والرخاء والتقدم والسلام دون ريب.

الإسلام خالد أبدا ، صالح لكل زمان ومكان ، لأنه منهج السماء ،لأنه دين الفطرة، لأنه دين الحياة،وحسبك بدين يدعوا إلى التقدم،والبناء والالتزام، وتحمل المسئولية، وأداء الأمانة ،والوفاء بالعهد ،والدفاع عن حقوق الإنسان،والرحمة لكل شيء، في الحياة،إنسان أو حيوان....

ليس الإسلام قيدا في العنق، ولا غلالة في اليد، ولا سيطرة وجبروت مفروضين على الإنسان، إنما هو خير وهدى ونور ورحمة وسعادة في الدنيا والآخرة لكل بني الإنسان.

هو أمانة مؤداه،وعدل مفروض،و إحسان موصول،والله عز وجل يقول:" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (٩٠ النحل).

ويقول عز وجل:" قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ• وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ (١٥١،١٥٢ الأنعام).

ثم يقول الله عز وجل عقب ذلك

"وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الإنعام ١٥٣).

❖ منهج السماء هو الإسلام....

❖ منهج الفطرة الإنسانية هو الإسلام.....

❖ منهج الحياة والتقدم هو الإسلام....

وأكرم بدين الله شريعة....

وأعظم بالقرآن



نزول القرآن

نزول القرآن:

القرآن الكريم كتاب الله الحكيم ومعجزته الخالدة، نزل به الروح الأمين على رسول الله الأمين، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، دليلا على رسالته، وبرهانا على صدقه فى دعوته،وصدق الوحى المنزل من السماء عليه ،وعلى انه الحق الذى هبط به جبريل وبلغه إليه.

كتاب الله المبين،ورسالته الباقية أبد الدهر، وشريعته السماوية المبلغة إلى نبى الإسلام، ورسول الإسلام، صلوات الله عليه.

ورمضان هو شهر القرآن، نزل فيه،وحببت إلينا تلاوته وقراءته فى كل ساعاته،والتعبد بحفظه وترديده فى كل أيامه وفى كل أوقاته.

شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان "٨٥ من سورة البقرة"

وفى نزول القرآن الكريم تفسيران:

الأول: أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، فى رمضان، ثم نزل على رسول الله ﷺ منجما، حسب الوقائع والحوادث،وهذا هو رأى ابن عباس فيما أثر عنه، فقد أنزل القرآن فى ليله القدر جملة واحدة، إلى سماء الدنيا،وكان الله عز وجل ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى أثر بعض "١:١١٦ الإتقان للسيوطى"

والثانى: أنه نزل من السماء على رسول الله منجما، نزل به الوحى الأمين، جزءا جزاء،على امتداد ثلاثة وعشرين سنة، على حسب الوقائع والحوادث.

ويشير القرآن الكريم إلى الحكمة من هذا التنجيم فى الآية الكريمة:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا" (٣٢ من سورة الفرقان).

وفى تاريخ نزول القرآن على رسول الله ﷺ روايات عدة:

١- **قيل:** أنه نزل فى السابع من رمضان من العام الواحد والأربعين لميلاد رسول الله ﷺ يوم الاثنين.

٢- وقيل: بل نزل لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان.

٣- وقيل: بل نزل لثمانى عشرة ليلة مضت منه يوم اثنين.

٤- وقيل: نزل لأربع وعشرين ليلة مضت منه" ٢: ٢٤الطبرى".

٥- وقيل: نزل لسبع وعشرين.

- ٢ -

كان رسول اللهﷺ يتعبد فى غار حراء شهرا من كل سنة فإذا انتهى الشهر وانصرف من الغار كان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل بيته أن يطوف بالكعبة سبعة أشواط فلما كان الشهر الذى أراد الله فيه ما أراد من كرامته ورسالته من السنة التى بعث فيها خاتم المرسلين،كان ذلك الشهر هو شهر رمضان: خرج رسول اللهﷺ إلى حراء، كما كان يخرج كل عام،ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة الموعودة،التى أكرمه الله عز وجل فيها بالرسالة، جاءه جبريل ملك الوحى عليه السلام، بأمر الله تعالى: قال رسول الله ﷺ :فجاءنى جبريل،وأنا نائم، بنمط من ديباج، فيه كتاب، فقال:

- اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ

فضمنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال:

- اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ، فغطنى، أى ضمنى ضمة شديدة،حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى،فقال

- اقرأ

قلت: ماذا أقرأ؟

فقال: اقرأ باسم ربك، الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

فقرأتها، ثم انتهى،فانصرف عنى،وهببت من نومى،فكأنما كتبت فى قلبى. فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر،فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدمية فـى أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه،فما أتقدم ولا أتأخر.. وجعلت أنظر إليه، وأصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فـى ناحية منها إلا رأيته كذلك.. فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى، حتـى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا على مكة، ورجعـوا إليـها، وأنـا واقـف فـى مكانى ذلك، ثم انصرف عنـى، وانصرفـت راجعـا إلى أهلـى، حتـى أتيـت خديجـة فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغـوا مكـة ورجعوا، فحدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عـم، واثبـت ، فوالـذى نفـس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

ثم قامت خديجة ،فجمعت عليها ثيابها، ثـم انطلقت إلى ورقـة، وهـو ابـن عمها، فأخبرته بما أخبرهـا بـه رسـول الله ﷺ أنـه رأى وسمـع، فقـال ورقـة لهـا- قدوس، قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتينى يا خديجه، لقـد جـاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى،وإنه لنبى هذه الأمة.

ولقى ورقة رسول الله وهو يطوف الكعبة، فقال لرســول الله يـا ابـن أخـى، أخبرنى ما رأيت وسمعت ،فأخبره رسول الله فقال لـه ورقـة: والـذى نفسـى بيـده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى.

ثم انصرف رسول الله إلى منزله، فابتدىء رسول الله ﷺ بـالتنزيل فـى شـهر رمضان،وفى ليلة السابع والعشرين منه على أرجح الروايات.

وأول ما نزل من القرآن صدر سـورة العلـق: اقـرأ باسـم ربـك الخ... روى البخارى ومسلم ذلك عن عائشة أم المؤمنين،وعن أبى موسى الأشعرى وغيرهما.

وكان نزول القرآن بالرسالة العظمى على محمد بن عبد الله ﷺ شرفا ومجـدا وعزا وجلالا لأمة محمد ﷺ كان معجزة كبرى خالدة على مر الزمان ،باقية على كر الأيام.

كتاب الله الخالد، وشريعة السماء الخاتمة لكل الشرائع، والرسالة الإلهية، المنزلة على خاتم المرسلين هداية للإنسانية، ورحمة للعالمين.. وهو بيان للشريعة، وتكليف لسيد الأنبياء بإبلاغ هذا البيان إلى الناس كافة، وهو الأساس الذى قامت عليه الدعوة والدولة والحضارة فى الإسلام، بل وهو أساس بناء المجتمع الإسلامى فى عصر الرسالة وبعد عصر الرسالة حتى اليوم.

ومجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة، منها الطويل، ومنها القصير.

وأول سورة أعلنها الرسول بمكة هى:

"والنجم إذا هوى" ، أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هى: **" ويل للمطففين"** وآخر آية نزلت من كتاب الله قوله- تعالى: **" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا"**[1]

والسورة القرآنية منها ما نزل فى الدعوة وتبليغها، أو فى الهداية والموعظة، ومنها ما نزل في التوحيد ومحاربة الشرك والوثنية، ومنها ما نزل فى التشريع وأحكام العبادات والمعاملات وقوانين الجماعة والأسرة والحكومة الإسلامية، ومنها ما نزل فى تقرير البعث وفى أمور الآخرة والغيب، ومنها ما نزل فى دعوات رسل الله الكرام، إلى أممهم، أو فى شرح قصص الأمم الماضية وكفرها برسالات الله وبغيها ومصيرها المحتوم، وفى شرح تطور الإنسانية وفى خلق الله للكون والوجود والحياة.

والسور المكية غالبا ما تدعو إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان، وتأييد رسالة محمد ﷺ وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة الباهرة، وإثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر، والرد على من ينكرون ذلك، وفى قصص الأمم القديمة وإنكارها، لرسالات، رسل الله إليها، وما حل بها من عذاب الله، وفى

---

[1] سورة المائدة (٣)

محاربة التقليد والأساطير والخرافات والوثنية والشرك والضلال، والحث على التفكير في نواميس الله في الكون.

والسور المدنية غالبا ما نزلت بالتشريعات الإلهية، وبيان النظم والقوانين للفرد والجماعة والأمة ومحاربة الرذائل، وتأكيد وحدة البشرية العامة، وتعزيز الصلات الإنسانية الاجتماعية والأخوة بين الناس عامة، وشرح خلافة الإنسان لله فى شتى الأحوال.

- ٢ -

ولقد كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من كتاب الله ابتداء، أو بأمر الرسول ﷺ على ما يتفق لهم من الألواح و الرقاع وقطع الأديم، وعلى العسب (جريد النخل) وعلى العظام وكل ما صلح للكتابة عليه.

وكان كل فرد من الصحابة يكتب ما تيسر له كتابته بنفسه أو بالاستعانة بغيره، وكان منهم القليل الذين كتبوا القرآن كله، والإجماع على: على بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت الذى تعلم الفارسية من رسول كسرى، والرومية من حاجب رسول الله ﷺ والحبشية من خادم النبى ﷺ والقبطية من خادمه أيضا، كما يذكر ابن عبد ربه فى كتابه: " العقد الفريد" (جـ٣ صـ ٦ العقد). وكان كتاب الوحى نحو الأربعين.

وقبل وفاة الرسول ﷺ عرض زيد القرآن على رسول الله ﷺ ففى عهده ﷺ كان القرآن مرتب السور والآيات، ولكنه غير مجموع فى كتاب واحد. وكان يحفظ القرآن كله أو بعضه كثير من الصحابة فى عهد محمد ﷺ وتوفى الرسول ﷺ والقرآن محفوظ فى صدور الصحابة وفى الرقاع التى كانوا يكتبون فيها سوره وآياته.

وفى خلافة أبى بكر- رضى الله عنه- ووفاة الكثير من الصحابة فى حروب الردة، التى قتل فيها كما قيل(سبعون قارئا من الصحابة) فزع أبو بكر وعمر، ورأى عمر جمع القرآن من صدور الصحابة ومن الألواح والخشب وغيرهما، ويروى أن عمر دخل على أبى بكر وقال له: يا خليفة رسول الله أن أصحاب الرسول باليمامة

يتهافتون تهافت الفراش على النار،وإنى أخشى ألا يشـهدوا موطنـا إلا فعلـوا ذلـك، حتى يقتلوا وهم حملة القرآن فلو جمعته وكتبته .[1]

وأرسل أبو بكر إلى زيـد يستشـيره فـى الأمـر،فكـره زيـد ذلـك، فقـال عمـر لهما: وما عليكما لو فعلتم ذلك، حتى ألهمهما الله به، فأمر أبو بكر زيـدا بـن ثـابت فجمع القرآن كله من الرقاع وصـدور الرجـال، ونسـخه فـى قطـع الأديـم والعسـب، وسمى أبو بكر هذه الألواح المكتوبة التى جمع فيها كتاب الله مصحفا،وحفظت عنـد أبى بكر، فلما توفى نقلها عمر عنده طول حياته، ولما استشهد حفظت عنـد حفصـة أم المؤمنين صدرا من ولاية عثمان، وهذا هو الجمع الأول، الذى حدث فى عهد أبـى بكر على يد زيد بن ثابت[2] وبإشراف عمر وكبار الصحابة،وكان الغـرض منـه جمـع القرآن فى مجموعة واحدة حتى لا يضيع منـه شـىء، بمـوت الصحابـة والقـراء فـى الغزوات.

وفى عهد عثمان تفرق الصحابة والقـراء فـى الأمصـار، وأخـذ عنـهم النـاس وجوه القراءة والترتيل، ممـا أدى إلى تعـدد القـراءات،واختلـف النـاس فـى القـراءة، وشـاهد حذيفـة بـن اليمـان[3] هـذا الاختـلاف وفـزع لـه، ونقـل ذلـك إلى الخليفـة عثمان،فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر يستأذنها فى الصحف القرآنية التى لديـها وهى التى جمع فيها أبو بكر القرآن، وأذنت له،وأمر زيد بن ثابت المتوفـى عـام ٤٥ هـ [4] وعبد الله ابن الزبير(١/ ٧٣هـ)[5] وعبد الرحمن بن الحارث بـن هشـام،وسـعيد بن العاص بأن ينسخوها فى المصاحف،وأمرهم بأن يرجعوا فيما يختلفون فيه إلى زيد بن ثابت،وما اختلفوا فيه جميعا أن يكتبوه بلسان قريش،فإن القرآن نـزل بلسـانهم،

---

[2] الإتقان للسيوطى ص ٩٨ جـ١

[2] وكان يعاونه بعض كتاب الوحى وفيهم سالم مولى أبى حذيفة.

[3] راجع (حلية الأولياء ١/ ٢٧٠- صفة الصفوة.. ١/٢٤٩- التهذيب لابن عساكر ٤/ ٩٣- الأعلام ط. ٦٣م. للزركلى ٢/١٨٠ و ١٨١- وقد توفى حذيفة عام ٣٦ هـ)

[4] ١/ ٢٩٤ صفة الصفوة لابن الجوزى- الإصابة لابن حجر- أسد الغابة لابن الأثير- رجال حول الرسول ﷺ لخالد محمد خالد- ٣٢٠ صحابة النبى ﷺ للدكتور الجميلى

[5] حلية الأولياء لأبى نعيم (١/ ٣٢٩) صفة الصفوة (١/ ٣٢٢)- التهذيب لابن عساكر (٧/ ٣٩٦)- تاريخ الطبرى- تاريخ ابن الأثير (٤/ ١٥٣)- ١٥٣ صحابة النبى ﷺ للدكتور الجميلى.

فكتبوا مصحفا عرضوه على حفصة أم المؤمنين فلم يختلف فى شىء منه، فرد عثمان صحف حفصة إليها وفرح بما عمل فرحا شديدا، وهذا هو الجمع الثانى للقرآن الكريم.

- ٣ -

أما عن حروف القرآن السبعة [1] فإن هذه الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه، فبعضه نزل بلغة قريش وهو معظمه، وما نزل بها كُتب بها أيضا، وبعضه نزل بلغة هذيل، وبعضه بلغة اليمن فكتب بلغتها، وهكذا... ولا يخفى أن القبائل التى نزل بعضه بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة، لأن فى نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها فى قراءته جميعه بهذه اللغة، فالذى حصل فى عهد أبى بكر هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا، فجعل كل آية بجوار صاحبتها طبقا للمحفوظ عن رسول الله ﷺ بدون زيادة ولا نقص، وجعل كل سورة على حدة لم يرتبه اكتفاء بترتيبه فى صدور الحفاظ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله، وأما عثمان فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة، ورتبه طبق المحفوظ، فالأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها فى عهد الرسول ﷺ كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ فى القبائل، ولم يوجد منها شئ فى مصحف عثمان لأنه كان مقصورا على لغة قريش.

أما السبب فى اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة فقد أجاب عنه البعض بأن القرآن قد تواتر عن الرسول ﷺ بلغات العرب على الوجه الذى سبق ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة، فتواتر نقله بلغات عدة، فلما كتب المصحف العثمانى، وبعث به عثمان إلى الأمصار التى كان بها بعض القراء من الصحابة عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة بما لا تدل عليه كتابة المصحف ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف يقول الحافظ ابن حجر: إن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت إليها المصاحف كان بها

---

[1] ص ٢٠ (تفسير القرآن الحكيم لخفاجى).

من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، فثبت أهل كل ناحية على كانوا قد تلقوه سماعا من الصحابة، بشرط موافقة الخط، وتركوا ما يخالف الخط، امتثالا لأمر عثمان الذى وافق عليه الصحابة، لما رأوا فى ذلك من الاحتياطات للقرآن، فمن ثم نشأ بين قراء الأمصار الاختلاف.

وقد يكون عثمان لم يحرم قراءة القرآن باللغات التى تواترت عن رسول الله ﷺ إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين المسلمين،فكتب مصحفه ليكون مرجعا يرجع إليه الناس عند الاختلاف، فإذا قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى، أمكنهم الرجوع إلى الأصل حيث يحصل الاتفاق حتما بالإجماع على التمسك بنص ما كتب فى المصحف أما غيره من المد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير فى نص القرآن،فذلك ما لا ضرر فيه بحال.. وإلى ذلك يشير قوله ﷺ لعمر: " يا عمر: القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة".. ويقول رسول الله ﷺ لعمر: " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه".

وبعد..فقبائل العرب التى نزل القرآن بلهجاتها هى: قريش ، ثقيف، سعد، هذيل، أسد،كنانة، قيس وأحلافها.

ثم ارتفعت هذه اللغات وبقيت لغة قريش وأصبح القرآن يقرأ بلغة قريش وحدها.. وعن مصحف عثمان نقلت كل المصاحف مخطوطة فى جميع أنحاء الدنيا.

- ٤ -

لقد تنافس المسلمون على طول العصور فى نسخ المصحف.واقتناء المكتوب منه بأجود الخطوط وأبدعها ، وكانت كتابته بالخط الكوفى حتى آخر القرن الرابع الهجرى. ثم حل محله خط النسخ أوائل القرن الخامس.

ثم ظهرت الطباعة،فصار المصحف يصدر مطبوعا بواسطة حروف الطباعة وقد ظهر القرآن لأول مرة فى البندقية عام ١٥٣٠ م. لكن السلطة البابوية أصدرت أمرا بإعدامه.

ثم صدرت طبعة للمصحف فى هامبورغ بألمانيا عام ١٦٩٤م. / ١١٠٦ هـ ثم طبع فى بادوا عام ١٦٩٨م./١١١٠ هـ ثم بطبع فى سانت بطرسبورغ فى روسيا عام ١٧٨٧م./ ١٢٠٢ هـ قام بها مولاى عثمان [1]، وظهر منها فى قازان،وفى إيران طبع طبعتين حجريتين فى طهران سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٢٨م. والأخرى فى تبريز.

وفى عام ١٢٥٠ هـ قام (فلوجل)بطبع القرآن فى ليبزج بألمانيا وقد انتشرت فى أوروبا بسبب إملائها الحديث السهل.

وطبع القرآن فى الهند طبعات كثيرة.. وكذلك فى الأستانة بدءا من عام ١٨٧٧.

وفى القاهرة كذلك طبع مئات الطبعات... وفى عام ١٣٤٢ هـ ظهرت طبعة متميزة بإشراف مشيخة الأزهر الشريف سمى مصحف فؤاد الأول، قامت على طبعة لجنة من العلماء – وقد ضبطت على ما يوافق رواية حفص...

وفى تونس عام ١٣٦٥ هـ، والمغرب طبع المصحف الشريف طبعات عدة، كما صدرت طبعة قرآنية فى تونس عام ١٩٩٩ باسم مصحف الجمهورية التونسية وصدور مصحف الجزائر عام ١٩٣٧.

وصدر فى قطر المصحف الشريف مطبوعا عام ١٩٨٦ قراءة نافع عن روش.

كما طبع طبعات عديدة فى باكستان... وطبعته(بروناى) طبعة ممتازة فى مطابع جريدة الأهرام بالقاهرة – ولدىَّ نسخة من هذه الطبعة الفاخرة بإهداء رئيس بروناى.

وعنيت المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم عناية فائقة.

وفى عهد خادم الحرمين أنشىء مجمع المصحف بالمدنية المنورة،وقد قام بعناية فائقة بطبع المصحف الشريف طبعات ممتازة،وصدر عن المجمع ما يكاد يبلغ المائة مليون نسخة وزعت كلها فى أنحاء العالم كافة.. والله يتولى الصالحين من عبادة والعاكفين على إصدار كتاب الله فى حلته القشيبة خدمة للإسلام والمسلمين بمزيد رعايته الكريمة.

وبهذه المناسبة أصدر الأزهر الشريف، طبعة خاصة باسم مصحف الأزهر،وتتميز هذه الطبعة بالجمال والروعة التى لا حد لها.. والله ولى التوفيق .

---

[1] وطبع المصحف الشريف فى بطر سبرج أيضا عام ١٨٩٨م – ١٣١٦ هـ لا بعنوان مصحف ولا بعنوان القرآن، ولكن بعنوان غاية فى الغرابة وهو (كلام قديم).

عظمة القرآن الكريم

في الأسلوب القرآني تظهر عظمة القرآن الكريم، وجلال بلاغته، وروعة تأثيره. نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب بفصاحته، وحلب ألبابهم بجرسه وحلاوته، وملك نفوسهم بما فيه من جمال اللفظ، ودقة الوصف، وبراعة التصوير، وسمو البيان، وسحر التعبير.

نظم بديع، وتأليف حسن، ومنطق عذب، ووصف محكم، فصل بين أجزائه تفصيلا، تشعر النفوس عند انتهاء أي فاصلة منه بانتهاء القول، وتطمئن إلى الوقوف عليها ولو تعلق بما بعدها.

جاء القرآن على هذا النظام الفريد، والنسق الغريب: من النضارة، والجلالة والإشراق، وحسن التقسيم، ودقة الصوغ، وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب، فدهش العرب وتحيروا، وأطالوا النظر، وأداموا الفكرة، وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع، وقوة أخاذة، وبلاغة نفاذة وسحر ساحر، وقالوا: ما هذا الذى يطالعنا به محمد كل يوم، أهو كهانة كاهن، أم شعر شاعر، أم سحر ساحر، أم عرض لأساطير الأولين؟

ولكنهم ما دروا أن هذا الذى بهرهم وراعهم إنما هو كلام رب العالمين، صاغه قلائد نادرة، تنقطع دونه القوى، وتتخاذل عنده بلاغة الفحول، وناهيك بهذا الأسلوب الفريد في طابعه الغريب في مسلكه الوحيد في تأتيه ومداخله، تتنوع طرقه في الإقناع بتنوع طبائع المخاطبين به.

فمن قصص على أشكال مختلفة في إطناب، أو أيجاز، أو توسط، وبفواصل طوال أو قصار أو متوسطة، ومن استدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السموات والأرض، أو ضرب الأمثال، أو بقياس الغائب على الحاضر، وبالبرهانات النظيرة، ومن تصريح وتكرير إلى كناية وتعريض، كل أولئك مصور بصورة فوق طاقة البشر من الأحكام والبلاغة وصحة الحكم، وانتفاء التناقض والاختلاف مع هذا الطول الواضح، ومن المعلوم أن الواحد من البشر إذا أجاد في فن من الكلام قصر في

غيره ؛" أفلا يتدبرون القرآن،ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"، ولقد كان العربى الموغل فى عناده، الممعن فى عتوه وفساده- يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ، ويتمكن من نفسه دون جهد، هكذا كل من يتروى وينصت إلى هذا الكلام العالى الطبقة، يلمح فيه سمو البلاغة،وإعجاز البيان ونضارة الأسلوب، ويمكننا أن نرجح سمو القرآن وسحره وعظمته الأدبية،وقوته البيانية- إلى ما فيه من قوة التصور ودقته و أحكامه، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى، وأشد مداخله للإحساس، وأبلغ إثارة للمشاعر،ومن تصوير القرآن الكريم.

يصور نعيم المتقين، وسعادة المؤمنين، فيحس المرء برد الراحة يدخل إليه، ويشعر بالغبطة والسرور تملأ جنبيه،وبالسعادة تسرى فتحل أقطار نفسه، فتفعمه طربا ونشوة وروحا.

ويصور الشقاء الذى سيحل بالطغاة، والعذاب الذى أعده الله للعصاة والمذنبين فترعد الفرائض وتضطرب المفاصل،وتختلج الأعضاء،ويزايل النفوس ما يسكنها من طمأنينة ووقار واتزان.

ومن ذا الذى يسمع قوله تعالى:" **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون،ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون،وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون**".

ثم لا يشعر بالراحة والنعيم المقيم أولا، ثم لا يستحضر الشقاء المقض والعذاب الممض آخرا؟ ماذاك إلا للبراعة الآخذة بمجامع القلوب، والتصوير الدقيق بين الرغبة والرهبة.

من ذا الذى لا تهزه النشوة،ولا يأخذه الإعجاب حين يستمع إلى قوله تعالى:" **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**".

ثم انظر إلى ما ينبث فى جوانب القرآن، ويسرى فى تضاعيفة من مختلف الحكم التى تأخذ بالألباب والتى بلغت من الصدق والدقة مبلغا لا ترقى إليه حكمة، ولا يتطاول إليه مثل، وهل حملت العربية فى صحائفها أدق وأروع فى تصوير الكثرة الفاشلة والجماعة الخادعة المتفرقة من قوله تعالى: " تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى"وهل تجد أدبا يروعك، وحكمة تستحوذ على أقطار نفسك من قوله تعالى: " وإذا مروا باللغو مروا كراما"؟

وهل يصور الطبائع الإنسانية، واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم إلا قوله تعالى: " كل حزب بما لديهم فرحون"؟ وفى القرآن الكريم كثير من الآيات على هذا النسق، وهذا الغرار، فجرت مجرى الأمثال: مثل قوله تعالى: " لكل نبأ مستقر" وقوله: " ضعف الطالب والمطلوب" وقوله: " ظهر الفساد فى البر والبحر"وقوله: " كل نفس بما كسبت رهينة" وقوله: " ما على الرسول إلا البلاغ" قيل للحسن بن الفضل: هل تجد فى كتاب الله: "خير الأمور الوسط" فقال نعم، فى أربعة مواضع: " لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك" و" الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا".

قيل فهل تجد " من جهل شيئا عاداه"؟ قال: " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه" قيل فهل تجد" ليس الخبر كالعيان"؟ قال: " أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى".

هذا إلى الأمثال المضروبة التى لا ترى كوقعها وحسن انطباقها، مثل قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير"وقوله " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله

الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار".

وإن تعجب فعجب ما يطالعك بـه القـرآن بـين دفتيـه مـن طريقـى الإيجـاز والإطناب فلكل مواطن ومقامات:

ففى مواطن الإطناب تجد القرآن يعطيك صورا كثيرة منه، ويشقق لك ألوانا تميل إليها النفس، ويحبها القلب ويهتز لها الوجدان.

وإن فيما حكاه الله مـن قصـة يوسـف عليـه السـلام، ومـا فيـها مـن ألـوان العظات والعبر، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الرضا والغضب،وأنـواع الحب والبغض،وما طبعت عليه من إيثار النفس وشدة الغيرة– فـى كـل ذلـك تلمس أثر الإطناب واضحا جليا فى صدق الإحاطة،ودقة التصوير، بقوله تعالى: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت مـن قبلـه لمـن الغافلين.إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشـر كوكبـا والشـمس والقمر رأيتهم لى ساجدين. قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيـدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين"... الخ.

وفـى مواطـن الإيجـاز– وهـو فـى الكـلام مـن أدق مسـائله،وبـه يتفـاضل البلغاء،وفيه يتنافسون، وتبرز أقدارهم،وتتضح قيمتهم الفنيـة وخصائصـهم الأدبيـة– نجد القرآن قد بلغ فيه الغاية والشأو الذى لا يبارى،شأنه فى جميع مناحى القـول، وقد أحكم اللفظ بإزاء المعنـى، ولمـح بالإشـارة العـابرة إلى مـا لا يتنـاهى مـن المعـانى السامية الكريمة،حتى يكاد السامع يخـر سـاجدا لهـذا البيـان الخـلاب،والأسـلوب المشرق، والعبارة السافرة، فمن ذلك قوله تعالى:" إن الذيـن قـالوا ربنـا الله ثـم استقاموا" فاستقاموا كلمـة واحـدة تفصـح عـن الطاعـات كلـها، فـى الائتمـار والانزجار،ولو أن إنسانا عبد الله مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسـرقتها عـن حد الاستقامة.

ومنه قوله تعالى:" لا خوف عليهم ولا هم يحزنون". فقد سلك فيه ذكـر كـل محبوب ،وزوال كل مكروه،ولا شىء أضر علـى الإنسـان مـن الخـوف والحـزن، لأن

الحزن ينشأ من مكروه ماض أو حاضر،والخوف يتولد من مكروه مستقبل،وليس وراء ذلك من أنواع المكروه شيء.

ومنه قوله تعالى:" **أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**" فالأمن كلمة واحدة تنبيء عن خلوص سرورهم من الشوائب، لأن الأمن هو السلامة من الخوف، وإذا قالوا الأمن بالإطلاق ارتفع الخوف عنهم. ومنه قوله تعالى:" **أوفوا بالعقود**" فهما كلمتان جمعتا ما عقده الله على نفسه لخلقه،وما تعاقده الناس فيما بينهم.

وقوله تعالى:" **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**" فلم يبق مفزع لأحد إلا تضمنته هاتان الكلمتان.

ومنه قوله تعالى:" **فاصدع بما تؤمر**" اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها و حلالها وحرامها مع القوة في الأمر بقوله اصدع،وما يشعر به لفظ الصدع من الأثر الشديد يحدثه النبي في نفوس العرب عند التبليغ.

ومنه قوله تعالى:" **والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**" فهذه الكلمات تجمع من أصناف التجارات،وأنواع المرافق في ركوب السفن مالا يبلغه الإحصاء.

وقولة تعالى في وصف خمر الجنة:" **لا يصدعون عنها ولا ينزفون**" فهما كلمتان قد أتتا على جميع معايب الخمر، ويشمل قوله:" **ولا ينزفون** " عدم العقل،وذهاب المال ونفاذ الشراب.

ومنه قوله :" **ولكم في القصاص حياة**" **وقد كان للعرب كلمة يعجبون بها،ويعدونها من أوابد كلامهم، وهي قولهم**" القتل أنفى للقتل" فلما نزلت آية القرآن تضاءلت أمامها كلمة العرب، وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق، فإن الآية كلمتان وهما: : القصاص حياة، وكلمة العرب أربع، والآية برئت من التكرار الحاصل في كلمة العرب، وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر الحياة المحبوبة،وجعلها نتيجة له،وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص،وأن القتل ليس تشفيا،وفي الآية تنكير لكلمة الحياة وهو للتعظيم،والحكمة خطأ، إذ ليس كل قتل انفى للقتل، فإن ذلك يشمل الاعتداء،والذي ينفي القتل هو القصاص.

ومن أمثلة الإعجاز فى القرآن قوله تعالى:" فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا" أبانت الآية عن اعتزالهم للناس، وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم، وما يوردون عليه من ذكر الحادث.

ومنه قوله تعالى:" وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء". ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ، حتى يصل مقطوعها، ويبسط مجموعها، ويظهر مستورها، فيقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة، فخفت منهم خيانة، أو نقضا فاعلمهم إنك نقضت ما شرطت لهم، وآذانهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض سواء.

ومنه قوله" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" جمع فيه جميع مكارم الأخلاق، لأن العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين، وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئا من المنكر، وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين ويسقط القدرة.

ومن الأسلوب القرآنى أسلوب الكناية، ومقامها فى التعبير واضح مشهور، وقد ورد فى القرآن منها ما لا يستطيع أن يدانيه بليغ، أو يتعلق بغباره ناثر أو شاعر، فمن ذلك ما ورد فى صفة المسيح عليه السلام وأمه من قوله تعالى: " ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام" فكنى بأكل الطعام عما يخرج من السبيلين، لأنهما بسبب منه، إذ لابد للآكل منهما، ومن الكناية قوله:" وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا" أى لفروجهم، ومنها قوله: " أو لامستم النساء" وكنى بالملامسة عن الجماع إذ لا يخلو منها غالبا، كما كنى عن الجماع بالسر فى قوله تعالى:" ولكن لا تواعدوهن سرا " وقوله تعالى:" إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة" كنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى ذلك، ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها، وكنى عن زليخا بامرأة العزيز، وإنما ذكر مريم باسمها تأكيدا لأن عيسى بلا أب وإلا نسب إليه، ومن كناياته أيضا قوله تعالى:" أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين" كناية عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور

ودقيق المعانى، ومنها أيضا قوله تعالى: " بل يداه مبسوطتان" كناية عن سعة الجود والكرم.

ومما يلابس الكناية فى هذا المقام ويؤدى مؤداها فى المبالغة التعريض، فقد وقع فى القرآن كثيرا، ومنه قوله تعالى: " قل نار جهنم أشد حرا" فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم، بل إفادة ما يتضمنه و يشير إليه ،وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا.

ومن التعريض قوله تعالى: " ومالى لا أعبد الذى فطرنى" أى وما لكم لا تعبدون بدليل قوله: " وإليه ترجعون" وكذلك قوله: "لئن أشركت ليحبطن عملك" خوطب النبى و أريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعا، وكذلك قوله تعالى: " إنما يتذكر أولو الألباب" تعريض بذم الكفار، وإنهم فى حكم البهائم التى لا تتذكر والتعريض والكناية نادران فى كلام العرب لدقة استعمالها ونفاسة قدرهما ولكنهما فى القرآن كثير.

وهناك لون جديد فى أسلوب القرآن، وهو التكرار الذى يجىء فى بعض آيات القرآن، فتختلف فى طرق الأداء، وأصل المعنى واحد فى العبارات المختلفة كالذى يكون فى بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد، وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة ونحوها، أو فى بعض عباراته لتحقيق النغمة ، وترديد المنة، والتذكير بالنعم واقتضاء شكره، إلى ما يكون فى هذا الباب.

قال الرافعى فى " تاريخ آداب العرب" وقد خفى هذا المعنى " التكرار" على بعض الملحدة وأشباههم، ومن لا نفاذ لهم فى أسرار العربية، ومقاصد الخطاب، والتأتى بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن وقالوا: إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة وهو- أخزاهم الله- كان أروع وأبلغ وأسرى عند الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا، وفى بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره. وأول من نبه عليه الجاحظ فى كتاب " الحيوان" إذ قال: ورأينا الله "تبارك وتعالى" إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحى والحذف، وإذا خاطب بنى

إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطا وزاد فى الكلام. أى كأن ذلك مبالغة فى أفهامهم وتوسع فى تصوير المعانى لهم وتلوينها بالألفاظ، إيجازا فى موضع وإطنابا فى موضع، إذ كانوا قوما لا سابقة لهم كالعرب، وليسوا فى حكمهم من البيان، فلا يمضى كلامهم لسنته بلا اعتراض من تنافر التركيب، وثقل الحروف، وجفاء الطبيعة اللغوية، فلهذا ونحوه كان لابد فى خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف العرب، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم، من الحذف، والقصد إلى الحجة والاكتفاء باللمحة الدالة، وبالإشارة الموحى بها، وبالكلمات المتوسمة، وما يجرى هذا المجرى، وهو قول صحيح فى الجملة.

وهناك شىء آخر نراه فى أسلوب القرآن، وهو المطاوعة واللين فى التقليب، والمرونة فى التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة، وتظهرها الدهور المتعاقبة، فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التى كانت مغيبة.

قال الرافعى: انظر مثلا فى قوله تعالى: "ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا" فهذه الآية سمعها العرب، فبعضهم يفهم من نسقها أن القمر نور، والشمس نور، ولكن اختلف اللفظان ليكون فى ذلك تنويع بليغ، ويعلو آخر عن هذه المنزلة، فيفهم أن القمر أضعف نورا من الشمس، لأن هذه عبر عنها بالسراج، ولفظ السراج يحضر فى النفس شعاعه المتقد، فكأنه نور منبعث من نار، ويدقق بعضهم فيرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع إلى النور الحرارة، ولذلك فائدة فى الحياة، ولهذه فائدة أخرى، والنور نفسه لا نكاد نحس فيه الحرارة بل إنما نحس فى السراج ووهجه.

وماذا نقول فى أسلوب القرآن الكريم، وقد حوى البلاغة والإعجاز من شتى جوانبهما، لأنه كتاب الله الحكيم، وبيانه المعجز، وهو هدى للعالمين.

بلاغة القرآن

- ١ -

لما كانت الأمة العربية التى بزغ منـها نـور النبـوة المحمديـة أمـة أميـة، لا تعرف علما ولا صناعة. ولا تملك إلا ملكة البيان تتصرف فيـه، وتجيـد الضـرب فـى نواحيه، والتحليق فى سمائه، وكانت أمـة لا تعـرف الفضـل لرجالهـا إلا فـى شـعر يجيدون حبكه، أو خطب يرمون بطوالها وقصارها، ولما كان ذلك- ناسـب أن تكـون حجة محمد ﷺ عليهم هى البيان،وتكون وسيلته إليهم هى البلاغة لأنها هى التـى آمنوا بها فيما بينهم،وعرفوا قدرها فى نفوسهم.

أنزل الله على رسوله القرآن، فكان حجته الدامغة وقوته وعدته علـى حـين لا عدة له ولا قوة، فصعقوا وزلزلـوا،وأخـذوا،وأذعنـوا حـين سمعـوا آياتـه الكريمـة وأسلوبه القوى،وبيانه الخلاب، وعباراته الآخذ بعضـها بعجز بعض.

والثابت المعروف أن العرب إنما أعجبوا بالقرآن،ودهشوا وتحيروا، لبلاغتـه التى عقلت ألسنتهم،وتأثيره السحرى الذى ملك ألبابـهم، وأسـلوبه الـذى عظـم عـن أساليبهم،وروحانيته الصافية التى أشعرتهم بقيمـهم،وحاكمتـهم إلى قلوبـهم وعقولهـم وحركت ضمائرهم:وأيقظت أحاسيس الخير فى نفوسهم،وفتحت أمامهم الآفـاق لمثـل عليا وحياة كريمة، فالذى بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء فى نفوسـهم إنمـا هـو أسلوب القرآن ومعناه وغرضه ومرمـاه وإذا أردت مصداقـا لهـذا حتـى تبصـره بعينـك وتتقراه بيدك- فها هو ذا أبو جهل بن هشام يقول فى ملأ مـن قريـش:" قـد التبـس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر،وكلمه ثم أتانـا ببيان عنه. فقال: عتبة بن ربيعة:والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علما وما يخفى على، ثم أتاه والشر ينبعث من عينيه وشياطين السوء تلعـب برأسـه. فقال: يا محمد أأنت خير أم هاشم؟ أأنت خير أم عبد المطلـب؟ أأنـت خـير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا،وتسب أحلامنا،وتضلل عقولنا فإن كنت تريـد الرياسـة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشـر نسـوة تختـار مـن أى بنات قريش شئت.وإن كان بك المال جمعنا لك مـن أموالنـا مـا تسـتغنى بـه، يقـول

عتبة هذا ورسول الله ساكت، فلما فرغ من حديثه قرأ عليه ﷺ قوله تعالى:

" بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون،وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون إلى أن بلغ قوله تعالى:" فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود،إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون".

وهنا، وهنا فقط ارتعد جسم عتبة و اساقطت نفسه رعبا وفزعا وصاح قائلا: نشدتك الرحم يا محمد أن تمسك وأمسك بفم الرسول.

فهذا رجل ملكت عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه فلم يتمالك من أن يصيح مناشدا الرسول أن يكف. فهل كان الذى راعه وروعه و أشاع الرعب والوجل فى قلبه إلا هذه القوة الحازمة المصممة وذلك الأسلوب الحاسم الرصين،وذلك البيان الخلاب، وتلك البلاغة الدافقة التى تحمل فى ثناياها الصدق والصراحة والقوة والأعزاز.

لقد رجع عتبة إلى أهله فلم يخرج لقريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه فقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب،وأقسم لا يكلم محمدا أبدا، وهذه عصبية قاتمة مظلمة تعمى القلب وتظلم البصيرة، ثم قال: لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر،ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ،وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

فمن هذا الحديث وأمثاله نعلم يقينا أن القرآن قد بهر القوم نوره، وأعشاهم ضوؤه وعقل ألسنتهم بيانه، واستبد بقواهم صوغه و أحكامه،وخلب ألبابهم قوته ونظمه ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبى ولا يذعنون،ويكابرون ولا يؤمنون يقول بعضهم: إنه سحر،وآخر إنه شعر،وغيرهم يقولون: إنه افتراء.

فتحداهم إذ ذاك رب العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور، فلما انكشفوا طالبهم بسورة واحدة، فملكهم البهر، وانقطع بهم الجدل، ولم يجدوا بعد إلا الإذعان والإيمان.

فما الذى يا ترى أذعنوا له، وآمنوا من أجله؟

- ٢ -

فى القرآن أسرار كثيرة ،وقوى هائلة كل شيء منها كاف وحدة لأن تدين له النفوس، وتخضع لحكمه القلوب والعقول.

١- ومن هذه الأسرار: ما فى القرآن من الأخبار بالمغيبات مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فوقع كما أخبر به،وجرى على وفق ما وصف كقوله تعالى: (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين). وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم). وقوله: (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين)وقوله(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقوله تعالى فى شأن أهل بدر وقد نزلت الآية بمكة قبل الوقعة بسبع سنين (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقوله : (وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)وقوله: (إنا كفيناك المستهزئين) ولما نزلت بشر النبى أصحابه بذلك،وكان المستهزئون نفرا بمكة يؤذون الرسول،ويتعرضون له، وينفرون الناس عنه، فهلكوا. وقوله تعالى:(والله يعصمك من الناس) فحفظه الله وحرسه مع كثرة من أحبوا ضره،وقصدوا قتله.

٢- ومن هذه الأسرار أيضا: ما فيه من أخبار الأمم الماضية،والقرون السالفة،والشرائع البائدة، مع الأمية الظاهرة للرسول الكريم، ولم يكن أحد يستطيع أن يلم بشيء من ذلك إلا بعض الأفذاذ من أحبار أهل الكتاب فقد كان الواحد منهم يقطع العمر فى تعلم القصص دون أن يحيط بجملة صالحة منها، فيورد النبى ﷺ هذه الأخبار على وجهها الصحيح،وقد علم العرب أن الرسول أمى لا يقرأ ولا يكتب ،ولا اشتغل بمدارسة هذه الأخبار ولم يعهد عنه أنه تتلمذ لأحد من الأحبار،ومن هذه الأخبار كل ما ورد فى القرآن من قصص

الأنبياء،وكثيرا ما تعرض له اليهود والنصارى بالسؤال عن أخبار أنبيائهم، وما ورد فى توراتهم وإنجيلهم، فيأتيهم بالجواب الصادق،والحجة الدامغة، حيث لا يستطيعون معارضة ولا مناقضة،وكان نتيجة لهذا أن صرح أكثرهم بصحة نبوته، وصدق مقالته،واعترفوا بحسدهم إياه، وعنادهم له، ومن لج فى الخصومة،وادعى كذب محمد فيما جاء به من أخبارهم قيل له: **(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)** فكان ذلك من أعظم التقريع والتوبيخ لهم. قال الله تعالى :**(قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير)**.

٣- ومن ذلك أيضا: حسن تأليفه،وتخير ألفاظه،والتئام كلمه،وتناهيه فى البلاغة إلى الحد الذى يعجز الخلق عنه،ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها باحث، ويكفى أن تعلم أن علوم البلاغة والنقد قد وضعت للكشف عن أسرار هذه البلاغة والنقد وقد وضعت للكشف عن أسرار هذه البلاغة ومظاهرها، ثم هى لا تزال بعد مضى أكثر من عشرة قرون- فى أول الغاية،يضاف إلى ذلك شرف معانيه، وسمو حكمه، وجلال دعوته ،وصدق حجته، وعمق منزعه، وعلو تصويره، فهو ليس كتاب قصص أو تسلية أو أدب أو حكمة أو فلسفة أو تاريخ أو اجتماع، وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ومعارف وعلوم ، فضلا عن أنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية الكاملة الصحيحة السليمة، وما أجدرنا أن نقول: إنه كتاب الإنسانية كافة وصحيفتها التى تستقى منها فى كل حين، ولقد عجز الناس عن معارضته،وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فبهتوا ووقفوا أمامه مشدوهين حائرين مقرين بالعجز، مقصرين عن الغاية.

وإن البحث فى هذا، وتفصيل القول فى فصاحة القرآن وبلاغته وسلامة تأليفه من الاضطراب، هو الذى شغل العلماء أجيالا طويلة يكشفون عن هذه الأسرار،وكم تكلموا فأطالوا فى تبيان قوله تعالى: **(ولكم فى القصاص حياة)** وقوله: **(ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب)** . وقوله :**(وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين)**.

وانظر إلى قوله تعالى فى وصف أهل النار: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق). وقوله تعالى فى وصف النار: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا،وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) وإلى قوله تعالى فى وصف أهل الجنة: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون).

وهكذا القرآن جميعه سبيكة واحدة فى جمال الرونق،وكمال البيان،و إحكام الصنعة،وتبيان الغرض،وليس أمامنا إلا أن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته لترى كيف سيقت الحكمة، وكيف ضرب المثل، وكيف دمغت الحجة، وكيف تمثلت الصنعة،وكيف وضح الدليل؟ وهو بعد أعظم دستور فى شرائع الإنسانية،و أروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية،ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار، كلما سمعت آية من آياته، أو سورة من سوره، ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والعقلية مستحيلة ممتنعة،وما ذاك إلا لأنه كتاب الله الحكيم، ومعجزة محمد ﷺ الباهرة الخالدة.

هذا،وقد عرضنا لك هذه الأسرار المتقدمة،والمزايا الظاهرة فى القرآن دون أن نفاضل بعد بينها،ودون أن نرجح بعضها على بعض ،فأى هذه الأسرار أحق بالتقديم وأجدر بالاعتبار؟

فإذا ما أردت الجواب الصحيح عن ذلك، فإننا لا نتردد فى تفضيل هذه الميزة الثالثة المتأخرة وهى الفصاحة،وقوة البيان،ومتانة النهج،لأن هذا السر هو الذى يحسن فى التحدى للعرب الذين عرفوا باللحن واشتهروا بقوة البيان، ثم هو الوصف الباقى مع القرآن ما بقى الزمان لأن الأخبار بما لم يكن ليست له قيمة ولا وزن إلا قبل حدوثه. فأما بعد ذلك فقد ذهبت روعته،وأصبح منكره فى حل من الإنكار. وفى حاجة إلى إقامة الدليل عليه من جديد، فنقول له: إن الأخبار قد سبق الوقوع

وتقدمه،وهذا ثابت مقطوع به، فتكون الحجة محتاجة إلى حجة أخرى، والبرهان متوقفا على غيره،وعهدنا بالعرب أنهم كانوا مولعين باستطلاع الغيب، وكان من بينهم من يدعى علم ذلك من الكهان الذين كانوا يلقون الكلام على عواهنه،فيصدق منه بعض ويكذب بعض، فلو تحداهم النبى بذلك لوجد من هؤلاء من يقول: أنا أخبرت بكذا ، فكان كما قلت،وهذا ضعف فى الحجة،ووهن فى الدليل ، لا نقبله فى القرآن،والاستدلال به على هذا الأمر العظيم،وهو صدق محمد ﷺ.

و أما الإخبار بالأمور التى وقعت منذ العهود السحيقة،وأخبر بها النبى ﷺ من قصص الأنبياء وحادث أهل الكهف، أو شأن ذى القرنين، فإن هذه أخبار كانت معلومة ومعهودة أيام النبى ﷺ وكان علمها مقصورا على أهل الكتاب، فلو شاء أن يعارض مبطل، فيقول: إن محمدا ﷺ قد استطاع الوصول إلى ذلك بوسائله الخاصة،وحسن تأتيه للأمور-فإن هذا القول يفت فى الحجة ويضعف من شأنها،وليس بمقبول أن ينال الوهن والضعف حجج الأنبياء من أى ناحية تكون، ولا يسعنا إزاء ذلك ألا أن نصيخ ونعترف بأن الإعجاز كان بهذا السر الباقى على الأيام،وهو البلاغة الساطعة حجتها الباقية آياتها بقاء الليل والنهار.

وقد رأينا من الباحثين فى هذا الموضوع من يقول: إن إعجاز القرآن فى معناه،وعلو حكمته،ودقة تشريعه،وشمول الفكرة فيه لما لم يكن معروفا عند العرب ولا مطروقا لهم، ولا هو تحت سمعهم وبصرهم ،فلم يتناولوه بالتفكير ،ولم يعالجوه بالبحث.

ومنهم من يرى عظمة القرآن وجلاله فى إعجازه العلمى وتفصيله لأسرار الكون والحياة والوجود ولعظمة خلق الله للأرض وللسماء وللعالم كله.

وهذا الوجه لا نراه ينهض وحده،ولا يستطيع الوقوف على قدميه، دون ضميمة غيره إليه، إذ يكون التحدى به تحديا بما لم تجر به العادة والعرف فى التحدى، فلم يعهد العرب أنهم أمه علم، ولم يدعوا ذلك لأنفسهم.ولم يقولوا أنهم أهل تفوق فى التشريع. حتى يقرعوا بالحجة. ويرموا بالدليل فى هذا الباب. بل المنقول عن العرب أن الذى راعهم وبهرهم إنما هو السبك والنسج وقوة البيان، فهذا قوله تعالى(فاصدع بما تؤمر) لم يصعق له سامعه،ولم يخر له ساجدا إلا من ناحية

الصوغ وبراعة التأليف،وإذا نظرنا إلى الحكم الصادر منهم بعد روية وتفكير وتقدير، وهو أن القرآن شعر أو سحر- عرفنا الناحية التى راعتهم، والطريقة التى بهرتهم، وهى ناحية التأثير والاستحواذ، لا ناحية دقة المعنى، وبعد المراد.

وخير ما يثبت هذا الجانب (وهو أن إعجاز القرآن من جهة البلاغة والبراعة والتأليف)ما رووه من أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد ،وهم الوليد بن المغيرة،والأخنس بن قيس،وأبو جهل بن هشام — اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسولا الله ﷺ وهو يصلى به فى بيته إلى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا على ذلك،وقالوا: إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه،واستمعوا إلى ما يقوله،واستمالهم وآمنوا به، فلما كان فى الليلة الثانية عادوا،وأخذ كل منهم موضعه،فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فاشتد تكبرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا، فلما تعالى النهار جاء الوليد ابن المغيرة إلى الأخنس بن قيس، فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول: قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة، قلنا: نعم قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم،قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم ،يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى، والله لا آمنت به أبداً، فما صدهم إلا العصبية البغيضة كما ترى وكما حكى الله عنهم فى قوله تعالى: (**وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**).

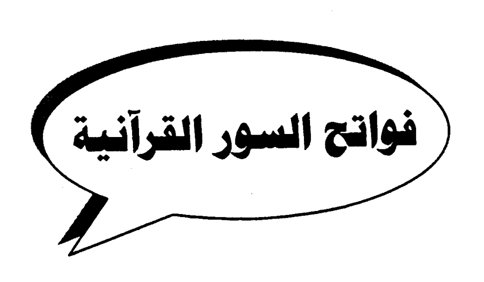
وهناك آراء أخرى فى وجوه الإعجاز، فمنهم من يقول: إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة،والبدائع الرائعة فى الفواتح والمقاصد والخواتم فى كل سورة، وفى مبادئ الآيات وفواصلها،ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن من التناقض،واشتماله على المعانى الدقيقة.

وقد عرض أبو بكر الباقلانى البلاغة فى كتابة " إعجاز القرآن" لإعجاز القرآن وذكر بعضا من آراء العلماء فيه وكذلك فعل السيوطى فى كتابه" الإتقان" ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم من العلماء الأفذاء.

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى إبراهيم النظام من شيوخ المعتزله،ومن قبله إلى الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد- وهو القول- " بالصرفة".

ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله،وأبطل قدرتهم عليه.

والذى حدا بالنظام إلى هذا الرأى هو أنه يرى أن هذا الطريق أدل على التأييد من الله لرسوله،إذ كان العجز مع القدرة،واستحالة الممكن،أدل على إرادة الله لنصرة نبيه،وهذا تلبيس باطل منا القول وزور، ولا يليق الأخذ به، فهو ينتزع من صاحبه الاعتراف بأن القرآن فى ذاته ممكن المعارضة،ولا مزية له ولا فضيلة يمتاز بها على كلام العرب، وأن عجزهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته، محدد بالمدة التى شاءت القدرة الإلهية أن تحد فيها من عزم العرب عن معارضة القرآن، وهذا كله نقص صارخ ينزه القرآن عنه، ولو كان ما ادعاه النظام يمكن وقوعه وحصوله،ما استعظم العرب فصاحة القرآن وما تعجبوا من قوة سبكه ومتانة رصفه وجمال تعبيره، بل كان الأمر الذى هو فى حاجة إلى العجب، هو عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها.


فواتح السور القرآنية

الآراء فى معانى ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة،والاختلافات حولها، متعددة، أهى أسماء لله تعالى، أم هى أسماء للسور نفسها، أم هى حروف لا أسماء،وما معناها حينئذ، أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها، أم هى رموز لمعان دينية أو صوفية: الخ.

اختلاف كثير لا حصر له، ولقد رجح من قبل الإمام جار الله الزمخشرى أن هذه الفواتح (عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه، ليقول للعرب أن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم، نستفتح بها الحديث معكم،فإن كنتم فى ريب من إلهية هذا الكتاب وقدسيته، فدونكم مجال التحدى والإعجاز فأتوا بمثله إن استعتطم،وسبقه إلى ذلك الباقلانى:

والزمخشرى يذكر الآراء العديدة فى فواتح السور، فمن رأى يذهب إلى أنها أن الفواتح أسماء للسور،ومن رأى أن الله عز وجل أقسم بها، ومن رأى أن هذه السور مصدرة بهذه الحروف لتكون أول ما يقرع الأسماع.

ويرجح السيوطى أن هذه الفواتح سر من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله . ونقل عن ابن عباس أن هذه الحروف تشير إلى معان تدل على جلال الله وعظمته، فمثل (ألم) معناها أن الله أعلم الخ . و أورد روايات أخرى منها أن هذه الحروف صوت الوحى عند أول نزوله على رسول الله.

ويذكر د/ ذكى مبارك فى كتابة (النثر الفنى) أن بعض المستشرقين يذهب إلى أنها إشارات وبيانات موسيقية تتبعها المرتلون ، ويقول : أنه ليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارت صوتيه لتوجيه الترتيل.

و الأعجب من ذلك أن بعض الناس فى أيامنا ذكر أن هذه الفواتح لها معان فى اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة وهو رأى يدل على سذاجة فكر و سطحية تفكير ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع،وخلاصته هى: افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سورة القرآن الكريم بهذه الابتداءات الم- المر- المص-

كهيعص–طسم– طس– يس– حمعسق– حم– ص– ق– ن– طه– الر. وهي كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء،وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فمثل "ألم" تقرأ هكذا، ألف لام ميم، والحروف التي كررت في هذه الفواتح هي أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين،ومجموع عدد الحروف المكسورة ثمانية وسبعون حرفا.

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة؟ يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التي هذه بعض حروفها والإشادة بالقرآن الكريم– كتاب العربية الخالد– الذي تلك بعض آياته.

وكأن الله عز وجل يقول للناس: هذه هي اللغة العربية لغة البيان والفصاحة وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز وكتاب العربية المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها إنسان، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية،وجاء في أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة، نزل على محمد النبي العربي العظيم،فكان معجزته الباقية الخالدة وعلى الأمة العربية التي اختارها الله لتكون جنود الله والحق في نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة في العالم كافة، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد في وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها في جميع الأرجاء،وفي تهذيب أساليبها وألفاظها،ورقي معانيها وخيالاتها وأفكارها،وفي السمو بأغراض الكلام فيها، إلى ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة،فكأن الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجدا للعربية وآدابها،وتكريما للعرب وسموا بمنزلتهم في قيادة الحياة الإنسانية، فالقائد الأعظم الذي اختير لنشر هداية السماء في الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربي،وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذي بين الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربي مبين، وكأنه يوحي إلى هذه الأمة العربية: أن آمنوا بمحمد ودعوته،وبكتابي ورسالته، فهما فخر لكم على مر الأيام: ومجد سيطوق أعناقكم طول الأجيال والأحقاب.

وخلاصة رأيى هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية،وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهى آخر الرسالات نزل بها القرآن العربى المبين،واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين،وإلى أنها ستكون مجدا للعرب والعربية طول العصور.





إعجاز القرآن الكريم

إعجاز القرآن

- ١ -

لما كانت الأمة العربية التى بزغ منـها نـور النبـوة المحمديـة أمـة أميـة، لا تعرف علما ولا صناعة. ولكنها تملك ملكة البيان تتصرف فيـه،وتجيد الضـرب فـى نواحيه،والتحليق فى سمائه،وكانت أمة مما تعرف به الفضل لرجالها شعر يجيـدون حبكه، أو خطب يرمون بطوالها وقصارها، لما كان ذلك ناسب أن تكون حجة محمد ﷺ هى البيان ،وتكون وسيلته إليهم هى البلاغة، لأنـها هـى التـى آمنـوا بـها فيمـا بينهم،وعرفوا قدرها فى نفوسهم.

أنزل الله على رسوله ﷺ القرآن. فكان حجتـه الدامغـة وقوتـه وعدتـه علـى حين لا عدة له ولا قوة . فصعقوا .وزلزلوا.وأخذوا. وأذعنوا حين سمعوا آياته الكريمة و أسلوبه القوى، وبيانه الخلاب،وعباراته الآخذ بعضها بحجز بعض.

والثابت المعروف أن العرب إنما أعجبوا بالقرآن، ودهشوا وتحـيروا لبلاغتـه التى عقلت ألسنتهم، وتأثيره السحرى الذى ملك ألبابهم، وأسلوبه الـذى عظـم عـن أساليبهم. وروحانيته الصافية التى أشعرتهم بقيمهم. وحاكمتهم إلى قلوبهم وعقولهـم. وحركت ضمائرهم وأيقظت أحاسيس الخير فى نفوسهم. وفتحت أمامهم الآفاق لمثـل عليا وحياة كريمة . (فالذى بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء فى نفوسهم إنما هـو أسلوب القرآن ومعناه وغرضه ومرماه). وإذا أردت مصداقا لهذا حتى تبصره بعينـك و تتقراه بيدك. فها هو ذا أبو جهل بن هشام يقول فى ملأ مـن قريـش" :" قـد التبـس علنيا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر،وكلمه ثم أتانـا ببيان عنه ،فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسـحر،وعلمـت من ذلك علما وما يخفى على أن كـان كذلـك فقـالوا إيتـه فحدثـه"، ثـم أتـاه والشـر ينبعث من عينيه وشياطين السوء تلعب برأسه فقال: يا محمد أنت خير أم هاشـم؟ أأنت خير أم عبد المطلب؟ أأنت خير أم عبـد الله؟ فيـم تشـتم آلهتنـا وتضلـل آباءنـا وتسفه أحلامنا ،وتذم ديننا، فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنـا فكنـت رئيسنا ما بقيت وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت،

وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك... الخ،يقـول عتبـة هـذا ورسـول اللهﷺ سـاكت، فلمـا فـرغ مـن حديثـه قـرأ عليـه محمـد ﷺ قولـه تعـالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" "حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتـاب فصلـت آياتـه قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون.وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه.وفى آذاننا وقر.ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون.قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد، فاسـتقيموا إليه واستغفروه.وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة وهـم بـالآخرة هـم كافرون" إلى أن بلغ قوله تعالى: " فإن أعرضوا فقل أنذرتكـم صاعقـة مثـل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون".

وهنا،و هنا فقط، ارتعد جسم عتبة واساقطت نفسه رعبا وفزعا وصاح قائلا: نشدتك الله والرحم يا محمد أن تمسك ،وأمسك بفم الرسول.

فهذا رجل ملكت عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه فلم يتمـالك مـن أن يصبـح مناشدا الرسول ﷺ أن يكف .فهل كان الذى راعه وروعه وأشاع الرعب والوجل فـى قلبه إلا هذه القوة الجازمة المصممة وذلـك الأسـلوب الحاسـم الرصـين. وذلـك البيـان الخلاب،وتلـك البلاغـة الدافقـة التـى تحمـل فـى ثناياهـا الصـدق والصرامـة والقـوة والإعزاز؟

لقد رجع عتبة إلى أهله فلم يخرج لقريش فلما احتبس عنهم قالوا: مـا نـرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه قالوا: يـا عتبـة مـا حبسـك عنـا إلا أنـك قـد صبـأت فغضب،وأقسم لا يكلم محمدا أبدا،وهذه عصبيـة قاتمـة مظلمـة تعمـى القلـب وتظلـم البصيرة، ثم قال: لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشـعر ولا كهانـة ولا سـحر. ولمـا بلغ " صاعقة عاد وثمود" أمسكت بفيه وناشدته بـالرحم أن يكـف ،وقـد علمتـم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

أسرار كثيرة

فمن هذا الحديث وأمثاله نعلم يقينا أن القرآن قد بهر القوم نوره.وأعشاهم ضوؤه وعقل ألسنتهم بيانه،واستبد بقواهم صوغه و إحكامه،و خلب ألبابهم قوته ونظمه ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبي ﷺ ولا يذعنون ،ويكابرون ولا يؤمنون،يقول بعضهم: إنه سحر،و آخر إنه شعر،؟وغيرهم يقولون: إنه افتراء.

فتحداهم إذ ذاك رب العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين،فلما عجزوا تحداهم بعشر سور، فلما انكشفوا طالبهم بسورة واحدة، فملكهم البهر، وانقطع بهم الجدل، ولم يجدوا بعد إلا الإذعان وإلا الإيمان.

فما الذى يا ترى أذعنوا له،وآمنوا من أجله؟

في القرآن أسرار كثيرة،وقوى هائلة .كل شيء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس،وتخضع لحكمه القلوب والعقول.

١- ومن هذه الأسرار: ما في القرآن من الأخبار بالمغيبات مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فوقع كما أخبر به، وجرى على وفق ما وصف كقوله تعالى: " لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين" وقوله، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وقوله، (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقوله تعالى في شأن أهل بدر وقد نزلت الآية بمكة قبل الوقعة بسبع سنين: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقوله : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وقوله : (إنا كفيناك المستهزئين)ولما نزلت بشر النبي ﷺ أصحابه بذلك،وكان المستهزئون نفرا بمكة يؤذون الرسول ﷺ ويتعرضون له، وينفرون الناس عنه ، فهلكوا. وقوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) فحفظه الله وحرسه مع كثرة من أحبوا ضره،وقصدوا قتله ﷺ .

٢- ومن هذه الأسرار أيضـا: مـا فيـه مـن أخبـار الأمـم الماضيـة، والقـرون السـالفة، والشرائع البائدة، مع الأمية الظاهرة للرسول الكريم، ولم يكن أحد يسـتطيع أن لم بشيء من ذلك إلا بعض الأفذاذ من أحبار أهـل الكتـاب فقد كـان الواحـد منـهم يقطع العمر فى تعلم بعض القصص دون أن يحيط بجملـة صالحـة منـها، فيـورد النبى ﷺ هذه الأخبار على وجهها الصحيح، وقـد علـم العـرب أن الرسـول ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة هذه الأخبار ولم يعهد عنـه أنـه تتلمـذ لأحد من الأحبار.

ومن هذه الأخبار كل ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء، وكثيرا ما تعـرض له اليهود والنصارى بالسؤال عن أخبار أنبيائـهم، ومـا ورد فـى توراتـهم وانجيلـهم، فيأتيـهم بـالجواب الصـادق، والحجـة الدمغـة ، حيـث لا يسـتطيعون معارضـة ولا مناقضة.

وكان نتيجة لهذا أن صرح أكثرهم بصحـة نبوتـه، وصدق مقالتـه، واعـترفوا بحسدهم إياه، وعنادهم له. ومن لج فـى الخصومـة وادعـى كذبـه فيمـا جـاء بـه مـن أخبارهم قيل له: **(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها أن كنتم صـادقين)** فكـان ذلـك مـن أعظم التقريع والتوبيخ. لهم قال الله تعالى : **(قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثـيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير).**

٣- ومن ذلك أيضا: حسن تأليفه ،وتخير ألفاظه ،والتئام كلمه ،وتناهيه فى البلاغـة إلى الحـد الـذى يعجـز الخلـق عنـه، ولا يسـتطيع أن يكشـف عـن خصائصــها باحث، ويكفى أن تعلم أن علوم البلاغة، والنقد قد وضعت للكشف عن أسرار هـذه البلاغة ومظاهرها، ثم هى لا تـزال بعـد مضـى أكـثر مـن عشـرة قـرون فـى أول الغاية. يضاف إلى ذلك شرف معانيــه، وسمـو حكمـه ،وجـلال دعوتـه، وصـدق حجته. وعمق منزعه، وعلو تصويره.

فهو ليس كتاب قصص أو تسلية أو أدبا أو حكمـة أو فلسـفته أو تاريخـا أو اجتماعا وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ومعارف وعلوم. فضلا عن أنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية الكاملة الصحيحة السليمة.

وما أجدرنا أن نقول: إنه كتاب الإنسانية كافة وصحيفتها التى تستقى منها فى كل حين، ولقد عجز الناس عن معارضته ،وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فبهتوا ووقفوا أمامه مشدوهين حائرين مقرين بالعجز. مقتصرين عن الغاية .

وإن البحث فى هذا ،وتفصيل القول فى فصاحة القرآن وبلاغته وسلامة تأليفه من الاضطراب ،هو الذى شغل العلماء أجيالا طويلة يكشفون عن هذه الأسرار،وكم تكلموا فاطالوا فى تبيان قوله تعالى: (ولكم فى القصاص حياة) وقوله : (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) وقوله : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين).

وانظر إلى قولة تعالى فى وصف أهل النار(فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود.ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) وقوله تعالى فى وصف النار: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا.وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا).

وإلى قوله تعالى فى وصف أهل الجنة" إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون".

وهكذا القرآن جميعه سبيكة واحدة فى جمال الرونق، وكمال البيان،وإحكام الصنعة ،وتبيان الغرض، فليس أمامنا إلا أن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته لترى كيف سيقت الحكمة وكيف ضرب المثل وكيف دمغت الحجة،وكيف تمثلت الصنعة وكيف وضح الدليل؟ وهو بعد أعظم دستور فى شرائع الإنسانية،و أروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية،ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار كلما سمعت آية من آياته أو سورة من سوره ،ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والعقلية مستحيلة ممتنعة وما ذاك إلا لأنه كتاب الله الحكيم،ومعجزة محمد ﷺ الباهرة الخالدة.

وقد عرضنا لك هذه الأسرار المتقدمة ،والمزايا الظاهرة فى القرآن الكريـم دون أن نفاضل بعد بينها ودون أن نرجـح بعضـها علـى بعـض فـأى هـذه الأسـرار أحـق بالتقديم وأجدر بالاعتبار؟

فإذ ما أردت الجواب الصحيح عن ذلك، فإننـا لا نـتردد فـى تفضيـل هـذه الميزة الثالثة المتأخرة وهى الفصاحة،وقوة البيان ، ومتانة النسج، لأن هـذا السـر هـو الذى يحسن فى التحدى للعرب الذين عرفوا باللسن. واشتهروا بقوة البيـان، ثـم هـو الوصف الباقى مع القرآن ما بقى الزمان، لأن الإخبار بما لم يكن ليست له قيمـة ولا وزن إلا قبل حدوثه. فأما بعد ذلك فقد ذهبت روعتـه. وأصبح منكـره فـى حـل مـن الإنكار وفى حاجة إلى أقامه الدليل عليه من جديد،فنقول له: أن الإخبـار قـد سـبق الوقوع وتقدمه،وهذا ثابت مقطوع بـه، فتكـون الحجـة محتاجـة إلى حجـة أخـرى، والبرهان متوقفا على غيره،وعهدنا بـالعرب أنـهم كـانوا مولعـين باسـتطلاع الغيـب، وكان من بينهم من يدعى علم ذلك من الكهان الذين كانوا يلقون الكلام على عواهنـه فيصدق منه بعض ويكذب بعض، فلو تحداهم النبى بذلك لوجد من هؤلاء من يقـول: أنا أخبرت بكذا،فكان كما قلت، وهذا ضعـف فـى الحجـة، ووهـن فـى الدليـل، لا نقبله فى القرآن،والاستدلال به على هذا الأمر العظيم وهو صدق محمد ﷺ

وأما الإخبار بالأمور التى وقعت منذ العهود السحيقة،وأخبر بـها النبـى ﷺ من قصص الأنبياء وحادث أهل الكهف، أو شأن ذى القرنين. فإن هذه أخبار كـانت معلومة من بعض جوانبها أيام النبى ﷺ وإن كان علمها مقصورا على أهـل الكتـاب، فلو شاء أن يعارض مبطل، فيقول : أن محمدا قد استطاع الوصول إلى ذلـك بوسـائله الخاصـة،وحسـن تأتيـه للأمـور فـإن هـذا القـول يفت فـى الحجـة ويضعــف مـن شأنها،وليس بمقبول أن ينال الوهن والضعف حجج الأنبياء من أى ناحية تكـون،ولا يسعنا إزاء ذلك إلا أن نصيخ ونعترف بأن الإعجاز كان بهذا السر الباقى على الأيـام وهو البلاغة الساطعة حجتها، الباقية آيتها بقاء الليل والنهار.

وقد رأينا من الباحثين فى هذا الموضـوع مـن يقـول: إن إعجـاز القـرآن فـى معناه،وعلو حكمته،ودقة تشريعه،وشمول الفكرة فيه لما لم يكن معروفـا عنـد العـرب

ولا مطروقا لهم، ولا هو تحت سمعهم وبصرهم، فلم يتناولوه بالتفكير ،ولم يعالجوه بالبحث.

وهذا الوجه لا نراه ينهض وحده، ولا يستطيع الوقوف على قدميه، دون ضميمة غيره إليه،إذ يكون التحدى به تحديا بما لم تجربه العادة والعرف فى التحدى فلم يعهد عن العرب أنهم أمة علم، ولم يدعوا ذلك لأنفسهم ولم يقولوا إنهم أهل تفوق فى التشريع، حتى يقرعوا بالحجة،ويرموا بالدليل فى هذا الباب، بل المنقول عن العرب أنا الذى راعهم وبهرهم إنما هو السبك والنهج وقوة البيان، فهذا قوله تعالى :**(فاصدع بما تؤمر)** لم يصعق له سامعه،ولم يخر له ساجدا إلا من ناحية الصوغ وبراعة التأليف،وإذا نظرنا إلى الحكم الصادر منهم بعد روية وتفكير وتقدير، وهو أن القرآن شعر أو سحر عرفنا الناحية التى راعتهم والطريقة التى بهرتهم وهى ناحية التأثير والاستحواذ لا ناحية دقة المعنى وبعد المراد.

وخير ما يثبت هذا الجانب (وهو إن إعجاز القرآن من جهة البلاغة والبراعة والتأليف)ما رووه من أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس،وأبو جهل بن هشام اتجهوا ليلة يسمعون القرآن متسللين من رسول الله ﷺ وهو يصلى به فى بيته إلى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا : إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه، واستمعوا إلى ما يقوله،واستمالهم وآمنوا به، فلما كان فى الليلة الثانية عادوا،أخذ كل منهم موضعه،فلما انصرفوا جمعتهم الطريق، فاشتد تكبرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس ابن قيس، فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الاخنس : ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم، قالوا:فينا السدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا : نعم ،يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا أمنت به أبدا.

فما صدهم إلا العصبية البغيضة كما ترى،وكما حكى الله عنهم فى قوله تعالى: **(وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون).**

وهناك آراء أخرى فى وجوه الإعجاز: فمنهم من يقول: إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائعة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم فى كل سورة، وفى مبادئ الآيات وفواصلها، ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن من التناقض،واشتماله على المعانى الدقيقة.

وقد عرض أبو بكر الباقلانى فى كتابه" إعجاز القرآن" لإعجاز القرآن وذكر بعضا من آراء العلماء فيه وكذلك فعل السيوطى فى كتابه " الإتقان" ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم من العلماء الأفذاذ.

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى إبراهيم النظام من شيوخ المعتزلة،ومن قبله إلى الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد وهو القول " بالصرفة" ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم لولا أن صرفهم الله أن يأتوا بمثله وأبطل قدرتهم عليه.

والذى حدا بالنظام إلى هذا الرأى هو أنه يرى أن هذا الطريق أدل على التأييد من الله لرسوله ﷺ إذ كان العجز مع القدرة،واستحالة الممكن أدل على إراد الله لنصره نبيه.

وهذا تلبيس باطل من القول وزور ،ولا يليق الأخذ به، فهو ينتزع من صاحبه الاعتراف بان القرآن فى ذاته ممكن المعارضة، ولا مزية له ولا فضيلة يمتاز بها على كلام العرب. وإن عجّزهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته،محدد بالمدة التى شاءت القدرة الإلهية أن تحد فيها من عزم العرب عن معارضة القرآن وهذا كله نقص صارخ ينزه القرآن عنه[1].

---

[1] مما رواه الإمام القرطبى عن الريان بن حرمله ص ٣٣٨ ج ١٥ ورواه عن أبى بكر بن الانبارى عن محمد بن كعب القرظى.

ولو كان ما ادعاه النظام يمكن وقوعه وحصوله ما استعظم العرب فصاحة القرآن وما تعجبوا من قوة سبكه ومتانة رصفه وعلو كلمه: بل كانا الأمر الذى هو فى حاجة إلى العجب، هو عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها[1] . (للبحث صلة)

– ٢ –

شغلت قضية الإعجاز القرآنـى العلماء والباحثين أجيالا طوالا، ولا تزال تشغلهم إلى اليوم، فلقد كان الإعجاز القرآنى موضع اهتمام العلماء بعد عصر النبوة وموضع دراساتهم، فألف الجاحظ كتابا فى نظم القرآن، سماه " الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، كما ذكر فى مقدمة الحيوان، وقد نقده الباقلانى وقال: إنه لم يأت فيه بجديد، ولم يخرج فيه عما قاله المتكلمون قبله وكره ياقوت باسم" نظم القرآن"، وفى هذا الكتاب يرى الجاحظ الإعجاز إنما هو فى النظم.

وتلاه أبو عبيد الله محمد بن زيد الواسطى المعتزلى (٣٠٦هـ) فألف كتابا أسماه" إعجاز القرآن فى نظمه"، وهذا الكتاب مفقود، وقد شرحه عبد القاهر الجرجانى شرحا كبيرا سماه المعتضد، وشرحا آخر أصغر منه، وهما مفقودان.

أما كتاب أبى عبيده (٢٠٨ هـ) مجاز القرآن، فليس فى الإعجاز، إنما هو فى الاحتجاج على أسلوب القرآن وتعبيره بأساليب العرب وطرقهم فى التعبير، ومعنى المجاز فيه طريقة الأداء والتعبير عن المعانى، فكأن معنى هذا الاسم طريقة القرآن الكريم فى الأداء، وقد احتج أبو عبيده فى كتابه للقرآن بأن أسلوبه جار وفق أساليب العرب فى الأداء.

وكتاب " مشكل القرآن" الذى ألفه ابن قتيبة (٢٧٦هـ) يتكلم على بعض القراءات ووجوه النحو المشكلة، ويفيض فى شرحها....

ثم ألف الرمانى (٣٨٨ هـ) رسالته " النكت" فى إعجاز القرآن والخطابى رسالته فى الإعجاز أيضا، وهما منشورتان مع الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجانى

---

[1] الحق هو الحق، قبل وقوعه وبعد وقوعه فإذا أنكره الكافرون قبل وقوعه وبعد الإخبار به كغيب، فإنه لا حجة لهم إذ يثبت الواقع صدقه بعد انقضاء الخبر بمدة طالت أم قصرت، بل وقوع الحدث بعد زمن من الإخبار به دليل صدق من أخبر بالغيب

فى الإعجاز، وقد حقق الثلاث الرسائل محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام وطبعتها دار المعارف بمصر بعنوان" ثلاث رسائل".

وفى رأى الرمانى أن الإعجاز سبع جهات:

ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة، والتحدى للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقيامة بكل معجزة.

والبلاغة هذه على عشرة أقسام:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل والتجانس، و التصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

ويرى الخطابى (٣٨٨ هـ) أن إعجاز القرآن إنما هو من ناحية البلاغة، وأنه كان باللفظ والمعنى جميعا، أى بهذا الأسلوب من النظم الذى جمع بين أفصح الألفاظ، فى أحسن نظام للتأليف، مضمنا أصح المعانى.

وكان كثير من المعتزلة يرون أن الإعجاز سببه الصرفة، وينسب هذا المذهب إلى النظام المعتزلى (٢٢٨هـ)، وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله، ومن أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى، وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يقول قولا قريبا من ذلك.

وجاء أبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) فألف كتابة" إعجاز القرآن" الذى تكلم فيه عن نبوه الرسول وأن معجزتها القرآن، ودلل على أن القرآن معجز، وأحصى جملة وجوه إعجازه فيما يأتى:

١- ما فيه من الأخبار بالمغيبات.

٢- ما فيه من أخبار الأمم القديمة مع أمية الرسول.

٣-نظم القرآن:

وجوه نظمه عشرة وجوه شرحها الباقلانى وفصلها وأطال الحديث عنها وهى:

الإيجاز– التشبيه –الاستعارة– التلاؤم– الفواصل– التجانس–التصريف– التضمين المبالغة– حسن البيان.

أما عبد القاهر الجرجاني فقد ألف كتابه المشهور" دلائل الإعجاز " وفيه يرد على رأى من يذهب إلى أن الإعجاز سببه الصرفة، ورفض أن يكون الإعجاز سببه الصرفة، ورفض أن يكون الإعجاز فى الكلم المفردة أو فى معانى الكلم المفردة أيضا، ورفض كذلك أن يكون سبب الإعجاز هو الجريان والسيولة وعذوبة الألفاظ وعدم ثقلها على اللسان: ورفض كذلك أن يكون الأصل فى الإعجاز هو الاستعارة أو الفواصل، أو الإيجاز أو المجاز،ورد الأعجاز إلى النظم وحده،ولذلك وقف كتابه " دلائل الإعجاز" على شرح نظرية النظم التى هى الأصل فى الإعجاز.

لقد عد كثير من العلماء قبل عبد القاهر البلاغة من بين وجوه إعجاز القرآن ولكن عبد القاهر من بينهم جعلها الوجه الوحيد للإعجاز،وشغل عبد القاهر بإيضاح فكرته فى البلاغة وجمال النظم عن تطبيقها على القرآن تطبيقا كبيرا،ومن ثم كان كتاب "دلائل الإعجاز" مقدمة لفهم الإعجاز. وليس حديثا فى صميم الإعجاز نفسه، إنه شرح لأصول نظرية النظم، من حيث كان الذين قبله يشيرون إلى النظم ودخله فى الإعجاز دون أن يبينوا ما هو النظم ولا المنهج العلمى الذى يدرس على أساسه النظم.

إن عبد القاهر رسم منهجا علميا كاملا لدراسة النظم، وجعل هذا المنهج هو مفتاح فهم قضية البلاغة و الإعجاز.

ثم ألف فى الإعجاز بعد الباقلانى وعبد القاهر:

١- فخر الدين الرازى م ٦٠٦ هـ.

٢- ابن أبى الإصبع م ٦٥٤ هـ.

٣- الزملكانى م ٧٢٧ هـ.

٤- إعجاز القرآن للرافعى المتوفى عام ١٩٣٦ م.

ولقد كان الباعث للكثير منهم على ذلك هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن سببه الصرفة.ومذهب الصرفة ينسب إلى النظام المعتزلى،وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح بن

المزدار المعتزلى البغدادى، وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولا قريبا من ذلك، وممن آمن بهذا المذهب بعد الباقلانى ابن سنان الخطابى ٤٦٦ هـ صاحب كتاب "سر الفصاحة".

وقد بدأ الباقلانى كتابه" إعجاز القرآن" بمقدمة تهدى إلى الكتاب وبحوثه ثم تكلم على نبوة الرسول وأن معجزتها القرآن،ودلل على أن القرآن معجزة،وأحصى جملة وجوه إعجاز القرآن ،وهى:

١- الأخبار عن المغيبات.

٢- ما فيه من أخبار الأمم القديمة مع أمية الرسول.

٣- نظم القرآن.

وقد شرح الباقلانى وجوه جمال نظم القرآن فى عشرة وجوه:

ثم تحدث عن نفى الشعر من القرآن.... وعن نفى السجع عنه أيضا...

وذكر كيفية الوقوف على أعجاز القرآن، والعجز عن معارضة القرآن فى كل عصر والتحدى،وقدر المعجز من القرآن،وما يتعلق به الإعجاز....

ووصف وجوه البلاغة وأنها عشرة أقسام:

الإيجاز،والتشبيه،و الاستعارة، و التلازم،والفواصل،والتجانس، والتصريف،والتضمين،والمبالغة،وحسن البيان.

ويقول: ومن الناس من يريد أخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التى ذكرنا أنها تسمى البديع، ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه العشرة التى ذكرناها هنا.

واعلم أن الذى بيناه قبل هذا،وذهبنا إليه، هو سديد ،وهو أن هذه الأمور تنقسم : فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتحمل له، ويدرك بالتعليم ، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة الإعجاز به، وإما ما لا سبيل إليه بالتعليم و التعلم من البلاغات فذلك هو الذى يدل على إعجازه.

ويتكلم بعد ذلك الباقلانى فى حقيقة المعجز. وفى أمور تتصل بالإعجاز يذكر لمحة فى وصف القرآن... إلى نهاية الكتاب.

ويقول المرحوم الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن:

إن كتاب الباقلانى وإن كان فيه الجيد الكثير، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنع له، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى، فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام وإلى شىء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ونوع وآخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قيل من النظم والنثر ذهبت بأكثره وعمرت جملته، وعدها فى محاسنة وهى من عيوبه، وكان الباقلانى واسع الحيلة فى العبارة ومبسوط اللسان إلى مدى بعيد، يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ وابن العميد، على بصر وتمكن وحسن تصرف، فجاء كتابه وكأنه فى غير ما وضع له فيه من الإغراق فى الحشد، والمبالغة فى الاستعانة، والاستراحة إلى النقل، لذا كان أكبر غرضه فى هذا الكتاب أن ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدى إلى الحجة،" وهذه ثلاثة لو بسطت لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب لو سعتها" وهى مع ذلك حشو.

على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف فى الإعجاز، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد، وفى كثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التى أوقع الكلام عليها، حتى عدوه الكتاب وحده، لا يترك العلماء معه كتابا آخر فى خطره، ومنزلته وبعد غوره و إحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده.

ويقول زكى مبارك فى كتابة" النثر الفنى فى القرن الرابع" عن الباقلانى أنه ولد بالبصرة، وسكن بغداد وتوفى بها سنة٤٠٣ هـ، وهو من كبار أهل السنة ومؤلف كتاب " إعجاز القرآن" والكتاب فى نظرنا صورة للحياة الأدبية فى القرن الرابع الهجرى.

والباقلانى يقول عنه الجاحظ البغدادى فى تاريخ بغداد.

هو محمد بن الطيب بن محمد" أبو بكر القاضى" المعروف بابن الباقلانى المتكلم على مذهب الأشعرى، من أهل البصرة، سكن بغداد ،وسمع بها الحديث، وكان ثقة.

فأما الكلام، فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطرا، و أجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة.

وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين: " من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوراج..وغيرهم...

وبعث عضد الدولة القاضي أبا بكر الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره، وبين له محله من العلم وموضعه، ففكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يسجد بين يديه إذا دخل عليه، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يدي الملوك ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يتمكن أحدا أن يدخل منه إلا راكعا، ليدخل القاضي منه على تلك الحال، فسار القاضي حتى وصل إلى المكان، فلما رآه تفكر فيه ثم فطن بالقصة، فأدار ظهره، وحنى رأسه راكعا، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك، فعجب من فطنته ووقعت له الهيبة في نفسه.

وللسكري يمدح القاضي أبا بكر:

اليعربي فصاحة وبلاغة
والأشعري إذا اعتزى للمذهب
وصلته همته بأبعد غاية
أعيا المريد لها سبيل المطلب
مازال ينصر دين أحمد صادعا
بالحق، يهدي للطريق الأصوب
شرفا أبابكروقد را صاعدا
يختب في شرق العلى و المغرب
حييت بك الآمال بعد مماتها
والغيث خصب للمكان المجدب
فاسلم سلمت من الزمان وصرفه
فلأنت أسرع من ربيع المحصب

ومات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب لسبع بقين من ذي العقدة من عام ٤٠٣ هـ

هذا ووجود الإعجاز عند الشيخ رشيد رضا هي:

١-بلاغة القرآن.

٢- سلامته من الاختلاف.

٣-عجز العصور عن أبطال شيء، منه.

٤- العلوم الدينية والتشريع.

٥-ما فيه من علم الغيب.

٦- تحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر في قصر نزول القرآن لقوله تعالى: "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل".

وقوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين".

وقوله: "و أنبتنا فيها من كل شيء موزون".

وقوله: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي".

وقوله تعالى: ثم استوى إلى السماء وهي دخان".

-٣-

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب رونقه وخلب ألبابهم جرسه ووقعه، وملك نفوسهم ما فيه من جمال اللفظ وبراعة التصوير، ودقة الوصف وسمو البيان، وروعة الأداء، فلم يضارعه أسلوب قبله ولا بعده من كلام البشر فلا هو شعر موزون ولا هو سجع ملتزم ولا هو مزاوجة دائما ولا هو نثر مرسل إرسال الحديث ولا هو خطابة، وإنما هو نظم بديع وتأليف حسن، ومنطق عذب ووضع محكم فصل بين أجزائه تفصيلا تشعر النفس عند انتهاء أي فاصلة منه بانتهاء القول وتطمئن إلى الوقوف عليها ولو تعلق بما بعدها.

جاء القرآن على هذا النظام الفريد والنسق الغريب: من النضارة والجلالة و الإشراق وحسن التقسيم، ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب فدهش العرب وتحيروا وأطالوا النظر وأداموا الفكرة وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع وجمال بارع وقوة أخاذة وبلاغة نفاذة وسحر ساحر وقالوا: ما هذا الذي يطالعنا به

محمد كل يوم أهو كهانة كاهن أم شعر شاعر أم سحر ساحر، أم عرض لأساطير الأولين؟

ولكنهم مادروا أن هذا الذى بهرهم وراعهم إنما هو كلام رب العالمين صاغه قلائد نادرة تنقطع دونه القوى، و تتخاذل عنده بلاغة الفحول وناهيك بهذا الأسلوب الفريد فى طابعه الغريب فى مسلكه الوحيد فى تأتيه ومداخله تتنوع طرقه فى الإقناع بتنوع طبائع المخاطبين به.

فمن قصص على أشكال مختلفة فى إطناب أو إيجاز أو توسط وبفواصل طوال أو قصار أو متوسطة ومن استدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة فى خلق السماوات والأرض أو ضرب الأمثال أو بقياس الغائب على الحاضر و بالبرهانات النظرية ومن تصريح وتكرير إلى كناية وتعريض، كل أولئك مصور بصورة فوق طاقة البشر من الأحكام والبلاغة وصحة الحكم وانتفاء التناقض والاختلاف ، مع هذا الطول الواضح، ومن المعلوم أن الواحد من البشر إذا أجاد فى فن من الكلام قصر فى غيره أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

ولقد كان العربى الموغل فى عناده المعن فى عتوه وفساده يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ويتمكن من نفسه دون جهد،وهكذا كل من يتروى وينصت إلى هذا الكلام العالى الطبقة يلمح فيه سمو البلاغة وإعجاز البيان ونضارة الأسلوب،ويمكننا أن نرجع سمو القرآن وسحره وعظمته الأدبية وقوته البيانية إلى ما فيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم.

يصور نعيم المتقين وسعادة المؤمنين فيحس المرء برد الراحة يدخل إليه ويشعر بالغبطة والسرور تملأ جنبيه،وبالسعادة تسرى فتحل أقطار نفسه فتفعمه الربا ونشوة وروحا.

ويصور الشقاء الذى سيحل بالطغاة والعذاب الذى أعده الله للعصاه والمذنبين فترعد الفرائص وتضطرب المفاصل وتختلج الأعضاء ويزايل النفوس ما يسكنها من طمأنينة ووقار واتزان.

ومن ذا الذى يسمع قوله تعالى:" الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون. ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون. ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا وشركائهم كافرين ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون" ثم لا يشعر بالراحة والنعيم المقيم أولا، ثم لا يستحضر الشقاء المقض،والعذاب الممض آخرا؟ ما ذاك إلا للبراعة الآخذة بمجامع القلوب والتصوير الدقيق بين الرغبة والرهبة.

ومن ذا الذى لا تهزه النشوة،ولا يأخذه الإعجاب حين يستمع إلى قوله تعالى: " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون".

ثم انظر إلى ما ينبث فى جوانب القرآن، ويسرى فى تضاعيفه من مختلف الحكم التى تأخذ بالألباب والتى بلغت من الصدق والدقة مبلغا لا ترقى إليه حكمة،ولا يتطاول دونه مثل وهل حملت العربية فى صحائفها أدق وأروع فى تصوير الكثرة الفاشلة والجماعة الخادعة المتفرقة من قوله تعالى :" تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى" وهل تجد أدبا يروعك ،وحكمة تستحوذ على أقطار نفسك من قوله تعالى: " وإذا مروا باللغو مروا كراما".

وهل يصور الطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم إلا قوله تعالى" كل حزب بما لديهم فرحون"؟ وفى القرآن الكريم كثير من الآيات على هذا النسق وهذا الغرار مثل قوله تعالى: " لكل نبأ مستقر" وقوله: " ضعف الطالب والمطلوب" وقوله:" ظهر الفساد فى البر والبحر" وقوله: كل نفس بما كسبت رهينة" وقوله:" ما على الرسول إلا البلاغ".

قيل للحسن بن الفضل: هل تجد فى كتاب الله: خير الأمور الوسط. فقال نعم، فى أربعة مواضع: " لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك" و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" و" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا

تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" و" ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا".

قيل فهل تجد من جهل شيئا عاداه: قال: " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه"، قيل فهل تجد ليس الخبر كالعيان؟ قال: "قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي".

لكل مواطن مقامات

هذا إلى الأمثال المضروبة التى لا ترى كوقعها وحسن انطباقها، مثل قوله تعالى: " يا أيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير" وقوله: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار".

وأن تعجب فعجب ما يطالعك به القرآن بين دفتيه من طريقى الإيجاز والإطناب فلكل مواطن ومقامات:

ففى مواطن الإطناب تجد القرآن يعطيك صورا كثيرة منه ويشقق لك ألوانا تميل إليها النفس ويحبها القلب، ويهتز لها الوجدان .

وإن فيما حكاه الله من قصة يوسف عليه السلام وما فيها من الألوان العظات والعبر، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الرضا والغضب وأنواع الحب والبغض وما طبعت عليه من إيثار النفس وشدة الغيرة فى كل ذلك تلمس أثر الإطناب واضحا جليا فى صدق الإحاطة، ودقة التصوير بقوله تعالى: " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين... إلخ .

وفى مواطن الإيجاز– وهو فى الكلام من أدق مسائله وبه يتفاضل البلغاء وفيه يتنافسون وتبرز أقدارهم وتتضح قيمتهم الفنية وخصائصهم الأدبية– نجد القرآن قد بلغ الغاية الشأو الذى لا يبارى شأنه فى جميع مناحى القول، وقد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى، ولمح بالإشارة العابرة إلى ما لا يتناهى من المعانى السامية الكريمة

حتى يكاد السامع يخر ساجدا لهذا البيان الخلاب والأسلوب المشرق والعبارة السافرة، فمن ذلك قوله تعالى:"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فاستقاموا كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلها فى الائتمار والانزجار ولو أن أنسانا عبد الله مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة.

ومن أمثلة الإيجاز فى القرآن قوله تعالى:" فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا" أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم وما يوردون عليه من ذكر الحادث.

ومنه قوله تعالى:" وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء" ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذة الألفاظ حتى يصل مقطوعها ويبسط مجموعها ويظهر مستورها فيقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة فخفت منهم خيانة أو نقضا فاعلمهم أنك نقضت ما شرطت لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض سواء.

ومنه قوله: " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" جمع فيه جميع مكارم الأخلاق لأن فى العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئا من المنكر، وفى الإعراض عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين ويسقط القدرة.

أسلوب الكناية

ومن الأسلوب القرآنى أسلوب الكناية ومقامها فى التعبير واضح مشهور وقد ورد فى القرآن منها ما لا يستطيع أن يدانيه بليغ أو يتعلق بغباره ناثرا أو شاعر، من ذلك ما ورد فى صفة المسيح عليه السلام وأمه من قوله تعالى" **ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**" فكنى بأكل الطعام عما يخرج من السبيلين لأنهما بسبب منه إذ لابد للآكل منهما. ومن الكناية قوله" وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا" أى لفروجهم ، ومنها قوله " **أو لامستم النساء** " وكنى بالملامسة عن الجماع إذ لا يخلو منها غالبا كما كنى عن الجماع بالسر فى قوله تعالى " ولكن لا تواعدوهن سرا" وقوله تعالى" إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة" كنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى ذلك ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها وكنى عن زليخا بامرأة العزيز وإنما ذكر مريم باسمها تأكيدا لأن عيسى بلا أب، وإلا لنسب إليه،ومن كناياته أيضا قوله تعالى، " **أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين**" كناية عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى ومنها أيضا قوله تعالى" **بل يداه مبسوطتان**" كناية عن سعة الجود والكرم.

ومما يلابس الكناية فى هذا المقام ويؤدى مؤداها فى المبالغة التعريض فقد وقع فى القرآن كثيرا ومنه قوله تعالى " **قل نار جهنم أشد حرا**" فإنه لم يقصد إفاده ذلك لأنه معلوم بل إفادة ما يتضمنه ويشير إليه وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا.

ومن التعريض قوله تعالى" **ومالى لا أعبد الذى فطرنى**" أى وما لكم لا تعبدون بدليل قوله " **وإليه ترجعون** " وكذلك قوله " **لئن أشركت ليحبطن عملك**" خوطب النبى و أريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعا وكذلك قوله تعالى " **إنما يتذكر أولو الألباب**" تعريض بذم الكفار وأنهم فى حكم البهائم التى لا تتذكر والتعريض والكناية نادران فى كلام العرب لدقة استعمالهما ولكنهما فى القرآن كثير.

وهناك لون جديد فى أسلوب القرآن وهو التكرار الذى يجىء فى بعض آيات القرآن فتختلف فى طرق الأداء وأصل المعنى واحد فى العبارات المختلفة كالذى يكون فى بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها أو فى بعض عباراته لتحقيق النغمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون فى هذا الباب.

قال الرافعى فى " تاريخ آداب العرب" وقد خفى هذا المعنى " التكرار" على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم فى أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتى بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن وقالوا: إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعه وهو- أخزاهم الله- كان أروع وأبلغ وأسرى عند الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا،وفى بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره وأول من نبه عليه الجاحظ فى كتاب " الحيوان" إذ قال: ورأينا الله" تبارك وتعالى" إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام أى كأن ذلك مبالغة فى إفهامهم وتوسع فى تصوير المعانى لهم وتلوينها بالألفاظ إيجازا فى موضع وإطنابا فى موضع إذ كانوا قوما لا سليقة لهم كالعرب وليسوا فى حكمهم من البيان فلا يمضى كلامهم لسنته بلا اعتراض من تنافر التركيب وثقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية فلهذا ونحوه كان لابد فى خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف العرب فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم، من الحذف والقصد إلى الحجة والاكتفاء باللمحة الدالة وبالإشارة الموحى بها.

وهناك شىء آخر نراه فى أسلوب القرآن. وهو المطاوعة واللين فى التقليب؟.والمرونة فى التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة وتظهرها الدهور المتعاقبة فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه. واختلاف وتمحيص وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن

لهم إلا الفطرة وفهمه كذلك من جاء بعهدهم من أهل العلوم وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التى كانت مغيبة.

قال الرافعي: انظر مثلا فى قوله تعالى" ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا" فهذه الآية سمعها العرب فبعضهم يفهم من نسقها أن القمر نور و الشمس نور ولكن اختلف اللفظان ليكون فى ذلك تنويع بليغ، ويعلو آخر عن هذه المنزلة فيفهم أن القمر أضعف نورا من الشمس لأن هذه عبر عنها بالسراج ولفظ السراج يحضر فى النفس شعاعه المتقد، فكأنه نور منبعث من نار،ويدقق بعضهم فيرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع إلى النور الحرارة، ولذلك فائدة فى الحياة ولهذه فائدة أخرى، والنور نفسه لا نكاد نحس فيه الحرارة بل إنما نحسها فى السراج ووهجه .

وماذا نقول فى أسلوب القرآن الكريم،وقد حوى البلاغة والإعجاز فى شتى جوانبهما لأنه كتاب الله الحكيم وبيانه المعجز.

الإعجاز والتحدى

كانت العرب أمة مفطورة على الأدب والشعر والبلاغة تحب ذلك، وتعشقه وتجيده وتستجيده ،وترفع منزلة الشاعر أكثر ما يكون خطيبا وشاعرا وأديبا ،فإذا نبغ فى القبيلة شاعر، أو ظهر فيها خطيب، استبشرت وافتخرت ،وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها،وباركت شاعرها أو خطيبها، كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء ،وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز الشاعر، وتلهم الشاعرية ،وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، فكانت حاجتهم إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون..

ومن ثم رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القيادة ، يصغون لقولهم،ويسيرون وفق توجيههم، ويمضون ما يحكمون به بينهم، يضعون الشريف النابه، ويرفعون الخامل الوضيع، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما، وكان النابغة سفيرا للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة وحكما بين الشعراء فى سوق عكاظ،وكان الأعشى يفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ويسافر إلى الحبشة،ويرفع الصعلوك،ويخفض من السادة والنابهين،وكان قس بن ساعدة الإيادى يفد على قيصر والغسانيين. وهذا كله مظهر من مظاهر سيادة الشعراء والبلغاء فى المجتمع الجاهلى القديم، وتقدير هذا المجتمع لبلاغتهم وأدبهم، وبحسبنا أن الشاعر كان يعلن الحرب ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بعث محمد صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة، نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى، فيه دعوة إلى التوحيد والطهر،وإلى الحق والخير، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر من شئون الحياة وأخبار الأمم،وقصص دعاة التوحيد من المرسلين و الأنبياء،وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل و آداب و توجيه وإرشاد. وفيه ذكر لنهاية الحياة،ولما يكون بعد الحياة من بعث ونشور وحساب وجزاء.

نـزل هـذا الكتـاب الكريـم، والوحـى الصـادق، والدسـتور العظيـم، والوثيقـة الخالدة، والنور الشامل، فكأن فـى أعلـى درجـات البلاغـة، ومنـازل الفصاحـة، لا يدانيه بيان ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شـعر وخطـب ومحـاورات ومفاخرات ومنافرات ووصايا ومثل وحكمـة وكهانـة... سمعـة فصحـاؤهم وبلغـاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته، مقرين بأنه نسيج وحده، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان، وبهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم، وسكتت شـاعريتهم، وضـاع إلهامهم كما يضيع السـراب فـى الصحـراء... وعجبـت الخطبـاء فيـهم، فخرسـت مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغـة والقـول، وذهبـت كـل بلاغـة فـى تياره، وضلت الفطر الأدبية، وفرت أمام أضواء نهاره...

ولكن زعماء الشـرك والوثنيـة أبـوا الإذعـان للديـن، والإيمـان برسـالة خـاتم المرسـلين، فـأخذوا يحـاربون الحـق بالأوهـام، ويؤلبـون قـوى الشـرك علـى دعـوة الإسلام، فقالوا فى القرآن هو شعر، وهو سحر، وإن هى إلا أساطير الأولين. ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وإن هذا إلا اختـلاف ورمـوا محمـد ﷺ بـالجنون، فتحداهـم الله عـز وجل ورسوله بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة القاهرة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربى المبين، قال تعالى: (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة مـن مثله) وقال: (أم يقولون افتراه . قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وقـال: (أم يقولون: تقوله ،بل لا يؤمنون.فليأتوا بحديث مثله. إن كانوا صـادقين) وقـال: (قل: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القـرآن لا يـأتون بمثله،ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

• • •

وهكذا بدأ التحدى بالقرآن كله، ثم بعشر سور منه، ثم بسـورة مـن مثلـه، وقد سجل الله عز وجل عجز البشر كافة، وبين أنه لا يسـتطيع الإنـس والجـن– ولـو تظاهروا– الوقوف أمام هذا التحدى، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة التى هى فـوق طاقتهم. لأنها بلاغة خالق البشر، والإلـه القـادر الأعظـم. ونفـى الله عـز وجـل عنـه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعرا وساحرا. ومن الافتراء والجنـة. ومـن الكذب والخيال، يقول الله تعالى: (والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى.وما

ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى)، وقال : (**إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن، قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين**". ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه لتذكرة للمتقين).

وهكذا رد الله عز وجل عليهم، وبين كذبهم وافتراءهم ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبين أنه منزل من السماء وأنه معجزة محمد رسول الله، وتحداهم إن كانوا كافرين ومكذبين إلى الإتيان بمثله أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا أمام التحدى، وباءوا بالخزى والهوان و الذله،وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول ،ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات، أو سورة أو سور،واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

* * *

وامتدت الأجيال .وتوالت العصور،والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب، فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان، ولم نر مفكرا يؤلف كتابا، أو شاعرا ينظم قصيدة، أو خطيبا يلقى خطبة، أو كاتبا بحبر رسائل ومقالات،ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة،أو شبه ذلك السحر... وفى تاريخ العربية فحول وفحول كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وكالبحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى والشريف الرضى، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة، وأين منازلهم من هذه المنزلة؟ وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة. كنهج البلاغة،ورسائل الجاحظ،وكليلة ودمنة،ومقامات البديع... الخ.... ولكن ما مكانها وما قيمتها؟ وما أثرها وما خطرها فى البلاغة الأدبية،والقيمة الفكرية،أمام كتاب الله المعجز،وكلامه الحكيم.

حتى الحديث النبوى الشريف،وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة،أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان؟ واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر بسكون تام،وخفض جناح ،وتفريغ لب، وجمع عقل فى ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب

العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، أراد مسيلمة الكذاب- فيما يروى- أن يقول كلاما فخزى وعجز وبان عليه العى والعجز، وباء بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله : " والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت... أسيد من رطب ولا يابس" وقوله: " والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، ما سبقكم أهل المدر" وغير ذلك من كلامه، أين يقع من ذلك النظم القرآنى العجيب، المعجز الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة، تنزيل من حكيم حميد).

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية وفكرية، ولكن هل هناك من هذه الآثار ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما تضمنه من بلاغة باهرة، وبما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة، والحضارة والعلم والمعرفة؟ وهل من بينها مثله كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه، ويعدونه دستورهم فى الحياة؟ وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم والكتاب الحكيم؟ وهل للقرآن- بربك- شبيه من الكتب، وحد لغة، وحفظها وأذاعها فى العالم، ورفع شأنها، وهذب ألفاظها وأساليبها، وأحيا فنونا جديدة من الأدب، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والآداب والبلاغة كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب، فوق آثاره فى حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية والسياسية، وفى حياة العالم، والإنسانية كافة...

ولا يزال لبلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم يؤمنون إيمانا صادقا بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه، هذا الإعجاز البيانى والأدبى والفكرى والروحى، وبأن هذا كله شىء انفرد به القرآن وحده، وأنه كلام الله وكتابه، وأن نبوة محمد صلوات الله عليه إنما بنيت على هذه

المعجزة ذلك الكتاب الحكيم المبين، وستمضى الأجيال وتتوالى العصور، وهو يضيىء كما يضىء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته.

ومن شأن بلاغة المفكرين أن تتغير بهجتها وقيمتها وفكريتها بتغير العصور، وتعاقب الأجيال،ولكن القرآن انفرد بثبات قيمه ومثالياته وعقائده وتجدد بلاغته وحسنه وروعته منذ نزوله حتى اليوم.

وخصائص القرآن البيانية،وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال، وبليغ المجاز،ودقيق التشبيه، وجيد الاستعارة والكناية،وساحر الطباق والجناس،ومحكم الإيجاز والإطناب المفيد، كل ذلك مضرب المثل بين الأدباء والنقاد.

* * *

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال فى كل غرض، فى الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعظ والوعد والوعيد، وفى التشريع والتنظيم و التوجيه، وفى سائر أمور الدنيا والدين... وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال، وهى من غير معين العرب الذى ينهلون منه، لاطمئنان النفوس إليها، وارتياح القلوب لها، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة والأدلة الساطعة،والأحكام الصائبة، وبحق إنه معجزة البيان،وآيه السماء... وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها فى موضع الجزالة والقوة ،وسلاستها وعذوبتها فى موضع العذوبة والسلاسة... مع البلاغة الزائعة والإيحاءات البعيدة والدلالات المعقد فوق ما تتحلى به من سحر وجمال،وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة،وخصائص البيان والإعجاز.

نزل القرآن فى أسلوب لا هو شعر ولا هو سجع ولا هو مزاوجة، ولا هو نثر مرسل ولا خطابة، إنما هو نظم رائع،وألفاظ رفيعة،ومعان عجيبة،ولما سمعه خطباؤهم وفصحاؤهم سجدوا له خاشعين،وما إيمان عمر حين سمع "طه" وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله: " والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر" حين سمع- فصلت- وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية،وما عجزهم أمام التحدى ،ما كل ذلك إلا دليل على الإعجاز وعظمة

البيان وجلال النسج وجماله، يقول أبو بكر الباقلاني: " إن نظم القرآن على تصـرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العـرب، ومبـاين للمـألوف من ترتيب خطابهم،وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة،والتصرف البديـع، والمعـانى اللطيفـة،والفوائـــد الغزيـــرة،والحكـــم الكثـــيرة،والتناســـب فـــى البلاغة،والتشابه فى البراعة، على هذا الطراز وعلى هذا القدر..."

إن لبلاغة القرآن حديثا طويلا،وهى القضية التى سـلم بـها أسـاطين البيـان وفحول البلاغة ،أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ،والخزى المهين؟



معجزات فى كتاب الله

القرآن ... معجزة السماء

سبحان الله العظيم مالك الملك ، ذى الجلال والإكرام " فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم"

ما من شيء أخبر به القرآن الكريم، إلا وكان الحق صداه، وإلا وأيد التاريخ مضمونه وفحواه.

وما من شيء نبأ به القرآن المجيد إلا وسيقع كما أخبر به كتاب الله العلى الحميد... هزم الفرس الروم واستولوا على البلاد التى كان الروم يحكمونها قبيل الهجرة، ونزل القرآن الكريم يقول" غلبت الروم" فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون" فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون" بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" وما هى إلا سنوات وإذا بالروم المستضعفين يهبون فجأة،ويستردون كل الأرض التى أخذت منهم ويهزمون الفرس هزيمة منكرة، وكان ذلك عام بدر (٦٢٤ ميلادية/ ٢/ للهجرة)

ولنقف هنا بين يدى الآية الكريمة، قال الله تعالى فى كتابه الحكيم:
" ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " (سورة الشورى).

الآيات: جمع آية،ومعناها هنا: المعجزة الدالة على قدرة الله وعظمته .. وتطلق الآية فى استعمالات أخرى ويراد بها العبرة والعظة،أو العلامة والدلالة، أو الفِقرة من فقر سور القرآن الكريم: ولكل هذه المعانى شواهد من كتاب الله عز وجل ليس هنا مجال ذكرها.

وخلق السموات والأرض معجزة المعجزات،وهو أيضا دلالة على قدرة الله وعظمته وجلاله .

وخلق الكائنات والموجودات التى بثها الله فى السموات والأرض ونشرها وفرقها فيهما أيضا معجزة من معجزات الخلاق العظيم والإله القادر المهيمن الحكيم.

والدابة: اسم لكل ما يدب على وجه الأرض و السماء من ملائكة وجن وأناسى،وحيوانات.

والخالق الأعظم،الذى صنع كل هذه المعجزات هو وحده على جمع كل ذلك قدير مقتدر. وعلماء التفسير يقولون: إن هذا الجمع سيحدث يوم القيامة. والتعبير بميم الجمع فى قوله تعالى: **"وهو على جمعهم"** دلالة على أنه يريد ما فيه روح من أناسى،وجن وملائكة،وأنا أرجح أن يكون المراد هنا من أناسى والكائنات الموجودة فى الأرض والسماء دون الملائكة بدلالة ميم الجمع من ناحية، وبدلاله المعنى من ناحية ثانية. إذ أن هذا الجمع لابد أن يكون لكائنات تتآلف وتتفق فى الوجود الإنسانى.

وأرجح كذلك أن يكون هذا الجمع، أى اللقاء، فى الدنيا، لأنه هو المعجزة التى لا يتصورها العقل البشرى، أما اللقاء بين الكائنات–كائنات الأرض والسماء– فى الآخرة فهو بدهى– مادام النشور والبعث والقيامة مما يجب أن يؤمن به المؤمن المصدق بكتاب الله عز وجل، أما اللقاء فى الدنيا فهو الذى لم يوجبه علينا،ولم يفرضه علينا، الكتاب الحكيم، وهو موضع الغرابة والعجب، لأن ما فى يوم القيامة معجزات فى معجزات ،يجب علينا الإيمان بها، ولكن اللقاء فى الدنيا وإن كان معجزة أيضا، إلا أنه لا يدخل فى أصول العقيدة، فهو إذن من دلائل القدرة الإلهية، وهو إذا إرادة الله معجزة من معجزات السماء، عنى القرآن الحكيم هنا بتسجيلها والنص عليها وعلى أنها آيه من آيات الله. ولو كان اللقاء فى الآخرة هو المراد هنا لما جاء قوله تعالى" إذا يشاء" لأن من البدهى أن الله عز وجل قد شاء هذا الجمع فى الآخرة على سبيل القطع، لاعلى سبيل الفرض الموجود هنا فى الآية الكريمة والفرض هنا مؤكد الوقوع بدلالة (إذا).

فالمعنى المراد أن الله عز وجل قادر على جمع كائنات الأرض والسماء، وعلى إيجاد اللقاء بينهما، عندما يشاء،ووقت ما يريد.

وهذه هى المعجزة التى يتنبأ بها القرآن الكريم، فالآية تدل على أن فى الكون والكواكب الأخرى حياة،وأن فيها كائنات مثل الإنسان،وأنه سيحدث لقاء بين إنسان الأرض وكائنات هذه الكواكب عندما يشاء الله تعالى.

وأظن أنه قد حان وقت هذا اللقاء؛ فالعلماء يرسلون مراكب الفضاء بين حين وآخر، ومعرفة مدى ما فيها من حياة، ونوع هذه الحياة، وهم يخططون الآن للنزول على سطح المريخ لاكتشاف الحياة فيه وجاء فى صحيفة الأهرام المصرية [١٦ مايو ١٩٩٣] تحت عنوان " البحث عن حياة أخرى فى الكون": من المتوقع وجود العديد من الحضارات،وبدرجات متفاوتة فى أرجاء الكون، وهذه الحضارات إن وجدت وبناء على درجة تقدمها التكنولوجى، قد تحاول الارتباط والاتصال بعضها ببعض، ومحاولاتنا للاتصال بهذه الحضارات الخارجية سوف يكون له تأثير هائل على نظرياتنا العلمية الحالية، وعن نمو وتطور هذه الحضارات، وهذا بالطبع يحتوى وبالدرجة الأساسية، حضاراتنا الإنسانية على وجه الأرض وتسترسل الصحيفة فى الحديث عن طرق هذا الاتصال، إلى أن تقول: إن اهتمام الإنسان بمحاولة الكشف عن هذه الحضارات والاتصال بها بلغ مدى كبيرا من الاهتمام إلى درجة أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تنفق عشر ملايين من الدولارات كل عام ولمدة الأعوام الخمسة القادمة، على أبحاث محاولة اكتشاف حضارات أخرى كونية والاتصال بها، وليس هنا من الناحية النظرية بالضرورة ما يمنع من وجود حضارات أخرى نقبع فى أحد أركان المعمورة.

التعجيل باللقاء

وبعد فإني أقول: أليس فى ذلك كله دلالة على أن العقل الإنسانى يخطط من قريب ومن بعيد للتعجيل بهذا اللقاء، بين كائنات الأرض وكائنات الكواكب الأخرى التى يرجح العلماء وجودها على سطح المريخ وغيره من كواكب.

أن القرآن الكريم منذ نحو خمسة عشر قرنا من الزمان قد أشار باللقاء بين إنسان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى– السماء– وجعل ذلك مرهونا بوقت مرده مشيئة الله عز وجل وإرادته.

وفى هذا دلائل عظمة كتاب الله الكريم، القرآن الحكيم،وأنه من عند الله حقا، وأن كل ما جاء به الكتاب المنزل من السماء إنما هو على لسان المولى

الأعظم، والخالق الأكبر والمدبر الأعلى لهذا الكـون الكبـير بنجومـه وكواكبـه وأفلاكـه وسياراته ومجراته العظمة التى يحار العقل البشرى فى تصورها.

اختراق طبقات الفضاء

لقد قال الله عز وجل فى كتابه الحكيم: " لتركبن طبقاً عن طبـق" [١٩ الانشقاق]، ولم نعرف تفسير هذه الآية وأن معناها اختراق طبقات الفضاء والصعود إلى كواكب أخرى كالقمر إلا بعد أن قال العلم كلمتـه، وصعـد الإنسـان بـالعلم إلى القمـر؛ وقال عز وجل فى كتابه الحكيم " يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفـذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ".

وكان معنى ذلك أن الإنسان إذا قدر أن يخترق طبقات الفضاء. فليفعل، وأنه لن يستطيع ذلك إلا بسلطان عظيم من العلم الذى علمـه الله للإنسـان. وتحقـق ذلـك باختراع العقل البشرى للصواريخ والمركبات الفضائية المذهلة.

نبوءة خالدة

وجاءت هذه النبوءة القرآنية الخالدة فـى القـرآن الكريـم، نبـوءة اللقـاء بـين إنسان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى، التى تتحقق بعد وستتحقق بأذن الله، لأن الله عز وجل قد شاءها، والتعبير فى آية الشورى الكريمة:" وهو علـى جمعـهم إذا يشاء قدير" بلفظة إذا التى تستعمل فيما هو قريب من الوقوع وسـيقع، للدلالـة علـى أن ذلك سـيحدث بـإذن الله ومشـيئته، كمـا تقـول لصديـق لـك "أزورك إذا تشـاء"، للدلالة على أن المشيئة ممكنة ،وأن الزيارة قريبة مـن الوقـوع، وفـى حـدود الإمكـان الذى لا استحالة فيه ولا شبه استحالة " يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريـم" الذى خلقك فسواك فعدلك " سورة الانفطار.

ويا أيتها الإنسانية، اصبخى بسمعك لتسمعى هذه النبـوءة، التـى نـزل بـها الذكر الحكيم، منذ نحو خمسة عشر قرنا من الزمان، وتسـمعى لهـذه الآيـة الكريمـة التى جاء فى ختامها قوله تعالى:" وهو على جمعهم إن يشاء قدير" .

ست كلمات تحمل لنا هذه النبوءة الجليلة. نبوءة اللقاء بـين إنسـان الأرض وكائنـات الكواكـب الأخـرى، التـى لا يصدقـها عقـل الإنسـان قبـل، بـل ولا يكـاد

يصدقها عقله اليوم، والتى لابد أن يعيها العقل الإنسانى عندما تقع وتحدث، فى أعوام قريبة قادمة. وعقل إنسان عصر الرسالة المحمدية معذور حقا إذا لم يفهم معنى هذه الآية الكريمة، بل وكذلك عقل إنسان العصور التى تلت عصر الرسالة، إذ كيف كان فى إمكانه أن يعرف ذلك، وأن يعيه ويفهمه ويعقله،وإنسان اليوم عاد فى عصر الفضاء إلى التأمل ،وإلى الإيمان بأن هذا اللقاء أمر ممكن الحدوث، بل وقريب الوقوع أيضا.

عصر الفضاء جعل تصور ذلك كله أمرا سهلا قريبا من الفهم، بعد أن كان أمرا أسطوريا محالا غريب التصور، مستحيل الإمكان فليسكن روع الإنسان والإنسانية،وليخفض صوت الماديين والعلمانيين والملحدين.

لقد قال العلم كلمته اليوم، بعد أن قالها القرآن الكريم منذ نحو خمسه عشر قرنا من الزمان.

فلتنتظر البشرية والعالم اليوم القريب، الذى يعلن فيه العلم كلمته، ويقول لنا: هذا هو كائن كواكب السماء، يقف اليوم بجوار إنسان الأرض، ليؤكد لقاؤهما أن الله حق ، وأنه قادر،وأن الله عز وجل على جمعهم إذا يشاء قدير، وصدق الله العظيم.

معجزة من معجزات القرآن

وما أجل وأعظم وأكثر معجزات هذا الكتاب الخالد العظيم، كتاب الله رب العالمين، المنزل على خاتم النبيين، محمد -ﷺ وعلى آله أجمعين.

وكيف يمكن إدراك أسرار إعجاز القرآن الكريم، وأنت حين تتدبر كتاب الله حق التدبر تجد إعجازا ما فوقه إعجاز، وتجد أسرار جلال يفوق الوصف ويتعالى على الإحصاء والعد.

جلال بلاغته التى أعجزت البلغاء.

أم شرف معانيه، وسمو مراميه.

أم عظمة أغراضه ومضامينه ومقاصده ومناحيه.

أم حديث الكتاب المبين عن الإنسانية فى ماضيها وعن الإنسان وطباعه وتكوينه.

أم حديثه عن المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله- جل جلاله".

أم إعجازه العلمى الذى لم تصل إليه عقول الأولين والآخرين، ولقد تنوعت مذاهب العلماء فى تفسير كتاب الله:

فمنهم من جنح إلى التفسير بالمأثور، كالطبرى فى تفسيره" جامع البيان" والسيوطى فى " الدر المنثور فى التفسير بالمأثور".

ومنهم من جنح إلى التفسير بالرأى كالرازى فى تفسيره" مفاتيح الغيب" والآلوسى فى تفسيره" روح المعانى" والبيضاوى فى تفسيره " أنوار التنزيل".

ومنهم من جنح إلى التفسير البلاغى أو البيانى كالزمخشرى، وذهب أبو حيان إلى التفسير النحوى فى " البحر المحيط" واختار القرطبى التفسير الفقهى فى تفسيره" الجامع لأحكام القرآن".

ولكننا الآن نقف أمام إعجاز القرآن الكريم فى تنبؤه بالمغيبات،وإخباره بما يحدث فى آخر الزمان، وصدق كل ما أخبر به الله- عز وجل- ومن ذلك قوله — تعالى :"لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين[1]" وقوله- تعالى - :

---

[1] سورة الفتح ٢٧.

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ "[1].

وقوله — تعالى، غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ" [2]. وقوله تعالى،" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[3]. وقوله تعالى– فى شأن أهل بدر "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"[4].

وقد نزلت هذه الآية بمكة قبل غزوة بدر بسبع سنين.

وقوله– تعالى–، "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"[5].

وقوله تعالى،" إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ"[6]. وكان المستهزئون جماعة بمكة يؤذون الرسول ويتعرضون له، وينفرون الناس منه، فهلكوا جميعا. ولما نزلت هذه الآية بشر الرسول أصحابه بذلك.

وقوله– تعالى–،" وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ "[7]. فحفظه الله وحرسه مع كثرة من أرادوا به السوء، وقصدوا قتله.

كتاب الله العظيم لا يحيط بجوانب إعجازه بشر، ولا يدرك سر هذا الإعجاز إنسان، ولا يصل إلى غور محيطه اللجى عقل.. إنه كتاب الله وكفى، وحسبنا بذلك وصفا، وحسبنا بهذا إقرارا بالعجز عن فهم أسرار هذا الإعجاز.

– ٢ –

ومعجزة جديدة لم يكتب عنها من قبل أحد، معجزة فى آية من آيات سورة" الدخان" هذه السورة المكية التى تبلغ آياتها تسعا وخمسين آية، والتى تبدأ

---

[1] سور النور ٥٥.

[2] سورة الروم٢–٤.

[3] سورة الحجر ٩.

[4] سورة القمر ٤٥.

[5] سورة التوبة ٣٣.

[6] سورة الحجر ٩٥.

[7] سورة المائدة ٦٧.

بالقسم بكتاب الله، الذى أنزله الله على رسوله الأمين فى ليلة مباركة هى ليلة القدر لينذر به العالمين،وليدعوهم به إلى الصراط المستقيم.

وفى صدر السورة ما فيها من تمجيد لله- عز وجل- ، رب السماوات والأرض وما بينهما ،وواهب الحياة للناس،والذى بيده حياة الناس وفناؤهم.

ثم تخاطب السورة مشركى مكة، الكافرين برسالة رسول الله، محمد- صلوات الله عليه- وتذكرهم بأن الله وحده هو ربهم ورب آبائهم الأولين،وبأنهم سيظلون فى خوضهم وشكهم يلعبون.

وبعد ذلك يتحدث القرآن الكريم عن جحود المشركين لرسالة خاتم النبيين، وقولهم عنه: " **معلم مجنون**"[1] . ويتنبأ بمصيرهم وهلاكهم فى بدر بقوله- تعالى: "**يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون**"[2] .

ويذكرهم بمصرع فرعون وجنده فى اليم بكفرهم بموسى ورسالته،ويعود كتاب الله إلى إنكار المشركين للبعث والجزاء بالتقريع لهم وبالإنكار عليهم،ويذكرهم بقدرة الله خالق السموات والأرض وما بينهما،وبأن يوم الفصل — وهو يوم القيامة- آت لا ريب فيه، وأن الكافرين سيلقون فيه العذاب الأليم،وأن المؤمنين سينالون فيه أعلى درجات النعيم. ويختم الله السورة بالحديث إلى رسوله الأمين: " **فارتقب إنهم مرتقبون**"[3] .

وسورة الدخان من السور المكية التى تجادل المشركين،وتتحدث عن كفرهم وآثامهم.

وفى الآية العاشرة فيها يخاطب المولى رسوله الكريم بقوله:

"**فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين**"[4] .

وهذه الآية هى موضع شاهدنا، وهى موضع المعجزة الإلهية الجليلة.

---

(1) الدخان.

(2) سورة الدخان ١٦

(3) سورة الدخان ٥٩

(4) سورة الدخان ١٠

وبهذه الآية سميت السورة سورة الدخان،وقد وردت كلمة الدخان فى القرآن الكريم فى هذا الموضوع، وفى موضع آخر فى سورة فصلت،وهو قوله- تعالى-: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"[1].

وتسمية "سورة الدخان" بهذا الاسم، لقوله — تعالى " فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين"[2].

دليل على أن هذه الآية تكمن المعجزة، معجزة التنبؤ بالمستقبل وأحداثه، ولم تسم سورة فصلت باسم" سورة الدخان" لأن لها غرضا آخر جليلا غير غرض هذه النبوءة الواعدة الصادقة .

فى هذه الآية رد على المشركين ما بعده من رد: وكأن الله- عز وجل — يقول لنبيه الكريم: انتظر فيوم هلاك المشركين قريب، ويوم مصارعهم فى بدر غير بعيد، بل ويوم خروجهم من قبورهم للبعث والجزاء وللعذاب آت لاريب فيه، كما سيأتى يوم تمتلئ السماء فيه بدخان مبين ظاهر تراه العين ولم يحدث أن روى أحد أن السماء ملأها الدخان إلا هذه الأيام ، الأيام التى غشى الأفق فيها فى بلادنا سحب كثيفة من الدخان، لا يعلم سره إلا الله، وإن قالوا فى سببه: إنه من آثار دخان المصانع وحرائق النفايات وعادم السيارات وغير ذلك.

السماء تمتلئ بالدخان. . . . يا لله.

لم تحدث هذه الظاهرة إلا هذه الأيام وقد تنبأ بها القرآن قبل أربعة عشر قرنا من الزمان.. وطالب الله- عز جل- رسوله بأن ينتظر حدوث ذلك، والرسول لن يعيش هذا الأمد الطويل، ولكن ذلك الترقب هو ولا شك سيكون من أتباعه أتباع رسول الله الذين يعيشون حدوث هذه الظاهرة،والذين يدعون الله قائلين:

"ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون"[3].

---

[1] سورة فصلت ١١

[2] الدخان ١٠.

[3] سورة الدخان ١٢.

ويقول الله- عز وجل: " إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون " [1].

أى إلى الكفر والشرك والمعصية والضلال. قد يقال: إن ظاهرة "الدخان يملأ الأفق" ظاهرة موضعية، ونقول: إن كل الأمور التى جعلها الله علامات ليوم القيامة هى موضعية، وأن ظاهرة هذا الدخان التى تحدث إنما هى علامة من علامات الساعة.

ففى تفسير مدلول هذه الآية يذهب على بن أبى طالب وابن عباس أن الدخان يكون قبل يوم القيامة، و هو من أشراط الساعة، وروى "حذيفة بن اليمان" أن رسول الله ﷺ قال: إن أول أشراط الساعة الدخان، بينما ذهب ابن مسعود إلى رأى آخر فى تفسير هذه الآية، وهو أن الدخان عبارة عما أصاب قريشا حين دعا عليهم رسول الله ﷺ - بالجدب فكان الرجل منهم يرى دخانا بينه وبين السماء من شدة الجوع.

قال ابن مسعود: خمس (أى خمس علامات من أشراط الساعة) قد مضين: الدخان واللزام والبطشة (بدر) والقمر(وانشق القمر) والدم.

وتفسير ابن مسعود حمل للآية الكريمة، على المجاز، والحمل على الحقيقة أولى لعدم وجود القرينة الدالة على المجاز.. والظاهرة أمامنا اليوم حقيقة واضحة.. أما أن نقول : إن الرجل كان من أثر الجوع يرى كأن السماء مملوءة بالدخان فذلك مع عدم القرينة مجاز لا تحمل الآية عليه لانتفاء الضرورة فى هذا الحمل.

وقد يقال: إن تفسير الآية بظاهرة الدخان الذى يملؤ الأفق فى سمائنا هذه الأيام هو فصل للكلام والحديث الذى هو عن قريش إلى الكلام عن عصرنا وزمننا وجيلنا اليوم فأقول: إن ذلك الفصل مقصود، وكأنه التفات إلى المستقبل من بين ثنايا الحاضر فى عصر رسول الله- ﷺ ولذلك جاءت لفظة "فارتقب" للدلالة على ذلك ولولا أن هذه الظاهرة حديث عن المستقبل ونبوءة به وبأحداثه لما فسرها على بن أبى

---

[1] سورة الدخان ١٥.

طالب وابن عباس بهذا التفسير الذى هو دليل رأينا، ودليل المعجزة التى سوف تحدث فى آخر الزمان، وهو زمننا اليوم.

- ٣ -

والذى أقوله هنا هو أن كتاب الله الحكيم قد تنبأ بأمر سوف يحدث بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم، وهو ظاهرة الدخان تملأ الأفق، وتنتشر فى سمائنا، ونفزع لها، ونحاول تفسيرها عاجزين قاصرين فلا نستطيع بدليل قول من أصابت هذه الظاهرة أفقهم: " إنا مؤمنون" ، وكفار قريش لم يقولوا ذلك أبدا لرسول الله، ولم يلجئوا إلى الله بالدعاء لكشف هذه الظاهرة، وإذا كانوا قد فكروا فى هذا اللجوء فإنما يكون لجوؤهم إلى أصنامهم- كعادتهم دائما وأبدا- إن ظاهرة الدخان يلمؤ أفق السماء هى ظاهرة تنبأ بحدوثها كتاب الله، وعدت علامة من علامات قيام الساعة فتبارك الله رب العالمين، عز وجل- شأن الله خالق الإنس والجن أجمعين، وسبحان الله، منزل العذاب بالكافرين، وكاشف العذاب عن عباده المؤمنين، ولا حول ولا قوة إلا بالله يحيى ويميت، وهو ربنا ورب قريش ورب آباء قريش الأولين، وإليه عز وجل- مصيرنا ومصير كل البشر أجمعين.

ماذا قالوا عن التفسير العلمى للقرآن الكريم؟

أيد التفسير العلمى للقرآن الكريم الكثير من العلماء مستدلين على ذلك بأن التقدم العلمى بتعاقب العصور يفسر العديد من آيات الله العظيم مما عجز علماء العصور السابقة عن تفسيرها وبأن القرآن الكريم لا يمثله وجه واحد من وجوه الإعجاز، والجانب العلمى هو أقوى وأشمل جميع وجوه الإعجاز القرآنى،وبأن العرب فى عصر النبوة لم يكونوا قد شاهدوا متطورات العلوم واستكشافاتها، وبأن العالم له رأيه فى تفسير إعجاز كتاب الله كما أن للبلاغيين رأيهم فى تفسيره كذلك وبأنه لا تعارض بين تفسير القرآن تفسيراً أدبيا بلاغيا وتفسيره تفسيرا علميا موضوعيا.

وذلك بشرط أن يكون التفسير العلمى لكتاب الله دقيقا وعميقا وشاملا وموضوعيا وأن يمثل جانب الاحتياط فى الأخذ بآراء العلماء الذين يعرضون لتفسير القرآن الحكيم.

وممن أيد التفسير العلمى لكتاب الله الإمام الرازى والإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا ومحمد فريد وجدى والدكتور زغلول النجار.

يقول الدكتور زغلول:

إن القرآن نزل للبشرية حتى يوم القيامة على اختلاف ثقافات عصورها وتنوع علوم أهلها . وهو إذن يخاطب العقول على اختلاف المواهب والثقافة والتدبر والتفكير وكل عاقل يأخذ منه ما يطيقه وما ينتفع به. وقد استنبط العلماء والفقهاء من آيات القرآن معانى وأحكاما لم يعرفها السابقون ، فالدارس للقرآن يأخذ منه بمقدار موهبته الفكرية وثقافته العلمية.

وعارض التفسير العلمى لكتاب الله عدد من العلماء بحجة أن أفكار العلماء ونظرياتهم وبحوثهم عرضة للتغيير ولاختلاف آراء العلماء بينما أن كتاب الله لا تغيير ولا تبديل فيه، ومن بين هؤلاء الإمام الشاطبى فى القديم ،والدكتور الذهبى فى الحديث.

التفسير العلمى لكتاب الله

اختلفت أغراض المفسرين فى تفسير كتاب الله العزيز، فقامت كل طائفة بالاهتمام بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحديد كلماته ومعرفة مخارج حروفه، واعتنى النحاة بإعرابه، ومنهم أبو حيان فى تفسيره النحوى البحر المحيط،واعتنى كثير من مفسريه بألفاظه ومعانيها .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، وتأملت طائفة منهم معانى خطابه من حيث العموم والخصوص وغيرهما ومن حيث، الحقيقة والمجاز والطاهر والمجمل والمحتم والمتشابه ،والأمر والنهى والنسخ إلخ.

واهتمت طائفة بالحلال والحرام وسائر الأحكام وسموا ذلك بعلم الفروع،وبالفقه أيضا، ومن هؤلاء القرطبى فى تفسيره "الجامع".

وعنيت طائفة بقصص القرآن ،وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وعنيت طائفة بما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ.

وعنيت طائفة بما فيه من أحكام المواريث.

وعنى البلاغيون بوجوه بلاغة القرآن.ومنهج الزمخشرى فى تفسيره "الكشاف" وعن بعض رجال العلوم بما فى القرآن من أسرار علمية كبيرة يعجز العلم الحديث عن إدراكها:

الأطباء نظروا إلى تكوين الجنين فى بطن أمه.

الجيولوجيون نظروا إلى طبقات الأرض وتكوينها.

وهكذا ... إن القرآن الكريم حافل بالإشارات العلمية الكونية ،وأكثر الناس إدراكاً لها هم المتخصصون فى الكونيات وعلوم الطبيعة.

وتتناول بعض آيات كتاب الله الجانب العلمى الفيزيائي وإدراكنا لهذه المعجزات العلمية فى كتاب الله لم يصل العلم إلى بعضها إلا مؤخرا.

والاهتمام بالجانب العلمى فى كتاب الله كبير اليوم ويبرز فى الساحة اليوم الدكتور زغلول النجار بكتاباته المتلاحقة عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

- ٢ -

وتتنوع مذاهب العلماء فى التفسير تنوعا كبيرا كما أسلفنا.

على أن من المفسرين من سار على درب التفسير بالمأثور وفى مقدمتهم الطبرى فى تفسيره "جامع البيان " والسيوطى فى تفسير" الدر المنثور فى التفسير بالمأثور".

وجنح بعض المفسرين إلى التفسير بالرأى ومن بينهم فخر الدين الرازى فى تفسيره " مفاتيح الغيب" والألوس فى تفسيره "روح المعانى" ، والبيضاوى فى تفسيره " أنوار التنزيل" والإمام الشيخ محمد عبده فى" تفسيره– المنار"

وهناك منهج أصحاب التفسير البيانى" الذى سار عليه أمين الخولى وبنت الشاطئ والذى دار حوله د .محمد عبد الله دراز وحمد المبارك"

كما نرى منهج أصحاب التفسير الموضوعى ونجدة عند السيوطى ومخلوف فى تفسيره " صفوة البيان" ومحمد فريد وجدى، ومحمد عبد المنعم خفاجى، ومحمد السعدى فرهود، وسواهم.

- ٣ -

والتفسير العلمى لكتاب الله يلقى قبولا من كثير من العلماء ، الذين يعارضهم كثيرون أيضا بحجة أن نظريات العلوم متلاحقة وبعضها يناقض البعض الآخر،والذين يسيرون مع التفسير العلمى لكتاب الله يقولون إنما يفسر كتاب الله على ضوء النظريات العلمية الثابتة المجمع على صحتها.

ولذلك نجد نظريات الشيخ طنطاوى جوهرة فى تفسيره " الجواهر الحسان" قد تغيرت كثيرا .. كثيرا. وللدكتور جمال الدين الفندى كتاب فى التفسير العلمى للقرآن. وللدكتور عبد الله شحاته كتاب " تفسير الآيات الكونية" وللأستاذ حنفى أحمد كتاب التفسير العلمى للآيات الكونية. وبالدكتور محمد أحمد الغمراوى كتاب " الإسلام فى عصر العلم" الذى قدم له الدكتور عبد السلام الكردانى.

وألف الدكتور السيد الجميلى كتاب " الإعجاز العلمى فى القرآن" وله أيضا كتاب " الإعجاز الطبى فى القرآن" قدم له الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى.

وهكذا: يسير البحث العلمى خطوة خطوة حول كتاب الله العزيز،وحول تفسيره تفسيرا علميا ثابتا لا يعتريه تبديل ولا تغيير.

– ٤ –

ومن نماذج التفسير العلمى ما كتبه الدكتور زغلول النجار عن الكون والكواكب والنجوم والجبال وطبقات الأرض وغيرها.

ومن نماذجه فى آخر مقال له فى صحيفة الأهرام وهو أقرب إلى التفسير التاريخى. شرحه للآية الكريمة" غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون "

حيث رأى أن المراد (بأدنى الأرض) حوض البحر الميت لأنها تحوى أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق ويذكر النجار أن الاجتياح الفارسى لأرض الروم كان عام ٦١٤م، والاحتياج البيزنطى المضاد كان عام ٦٢٧م.

والتفسير العلمى سبق الشاطبى إلى رفضه، وتابعه كثير من العلماء، ومن بينهم: شلتوت، والذهبى ومحمد فريد وجدى .

الفهـــــرس

الموضــــــــوع	الصفحة
تصدير :--	٥
القسم الأول :------------------------------------	٧
بين يدى كتاب الله العظيم	
كتاب الإنسانية	٩
هدى القرآن الكريم	١٦
القرآن رسالة الله إلى العالمين	١٨
القرآن رسالة ووحى من السماء	٢٣
القرآن المعجزة الدائمة	٢٥
القرآن وثيقة الإسلام	٢٩
القسم الثانى :-----------------------------------	٣٣
نزول القرآن	
نزول القرآن	٣٥
كتاب الله الخالد	٣٨
عظمة القرآن الكريم	٤٤
بلاغة القرآن	٥٢
فواتح السور القرآنية	٦١
القسم الثالث. -----------------------------------	٦٧
إعجاز القرآن الكريم	
أسرار كثيرة	٧١

لكل مواطن مقومات ٨٧
أسلوب الكتابة ٨٩
الإعجاز والتحدى ٩٢
القسم الرابع:-- ٩٩

معجزات كتاب الله

القرآن معجزة السماء ١٠١
معجزة من معجزات القرآن ١٠٦
ماذا قالوا عن التفسير العلمى للقرآن الكريم ١١٢